

جان إشنوز

بروق

رواية

12.5.2017



ترجمها عن الفرنسية
أبو بكر العيادي

جان إشنوز

بروق

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة
أبوبكر العيادي

مراجعة
كاظم جهاد



PQ2665.C5 D4712 2016

Echenoz, Jean, 1947-

[Des éclairs]

بروق : رواية / تأليف جان إشنوز ؛ ترجمة أبو بكر العيادي ؛ مراجعة
كاظم جهاد. - ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.
196 ص. ؛ 11 × 18 سم.



عنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Jean Echenoz

Des éclairs

© 2010 by Les Editions de Minuit

الغلاف: نيكولا تسلا بجوار أحد محولاته ذات التردد العالي



كلمة
KALIMA

www.kalima.ae

من ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة. هاتف: 971 2 6215 300 + فاكس: 971 2 6433 127 +



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

2016
عام
القراءة
مختار - مختار - مختار

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره. وتعتبر وجهات
النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة».

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه
التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروعة أو بأي وسيلة نشر أخرى. بما فيه حفظ
المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n



بروق

ديباجة

هذه واحدة من ثلاث روايات للكاتب الفرنسي جان إشنوز Jean Echenoz نضعها بين يدي القارئ العربي بصورة متزامنة، آمليْن أن يقرأها تباعاً مثلما أراد لها مؤلفها أن تُقرأ، أي بها هي عناصر متضافرة ومستقلة في الآن ذاته لمشروع أدبيّ واحد. في كلّ واحدة من هذه الروايات البيوغرافية أو السّير، يقيم إشنوز شعريّة خاصّة تقترن بمواصفات بطل كلّ رواية ونظامه الشعوريّ والإدراكيّ، وتجترح لغة قادرة على عكسه في خصوصيّته، لا بل في فرادته.

كرّس إشنوز هذه الكتب الثلاثة لمؤلف موسيقيّ وعداء وعالم، وفي كلّ منها نقع على اصطدام العبقرية بعائنيّ أساسيّ أو بجملة عوائق. في «رافيل» Ravel (2006) نقف على تناوب الاحتدام الإبداعيّ وتدهور الذاكرة

والجسد، على تسارع الفعل الفتي وتباطؤ عمل الأعضاء. وفي «عدو» Courir (2008) نرافق مسيرة تصاعديّة لعداء يجدد الرياضة بمنتهى العفوية، بلا تخطيط وبلا حساب، ثم سرعان ما يتلقفه التاريخ بتناقضاته ويقوده إلى منطقة من الظل لا تثلم عظمته مع ذلك ولا تقلل من حصّة الفرادة في أدائه وفي تكوينه. وفي «بروق» Des éclairs (2010) نكون، بدءاً بالعنوان، أمام تسارعات ضوئية ولهبة مشاعر وأفكار ومشاريع مذهلة في وفرتها وغرابتها، يتلوها انطفاء سريع لحياة مشبوبة، مسيرة إعجازيّة بقيت مبتورة حتّى لتشكل تجسّداً حيّاً لحسرة أبولينير: «هل من ومضة تدوم؟».

ما يمسك بنا في رواية «بروق» هذه من أقصاها إلى أقصاها هو، من بين أشياء أخرى بعيدة الدلالة، حدّة هذا التباين الأليم بين سخاء المخترع وشحّة المحيط. بخل الرأسماليّة الصاعدة وحساباتها، وكرم البازل الذي يريد إنارة المعمورة بكاملها مجّاناً، يضحكون منه ويسرقون براءات اختراعاته وعوائد مبتكراته حتّى ينتهي وحيداً معزولاً، واجداً بعض عزاء له في الهذيان الأنيق والسلوك

المُفارق، في محبة الطيور ومعالجتها وتضميد جراحها، أي في الانغماس المتزايد في غرابة شخصية بها يواجه غرابة عصره، غرابة ضد غرابة وتأکید على شجاعة الذات في مواجهة النكران.

نلاقي أيضاً لغة سردية تلائم الشخصية المحورية وتعكسها في كلّ تنامياتها؛ موسوعية فاعلة وليست من النوع الذي يمكن نيله من الكتب أو جرائد الفترة المعنية، بل هي تُلزم بانخراط وتفاعل وابتكار.

مفتونين، متعاطفين، نواجه غرابة نيكولا تسلا Nikola Tesla الذي، خلافاً لما نرى في تناول إشنوز لسيرتي مورييس رافيل وإيميل زاتوبيك في العملين الآخرين من ثلاثيته هذه، يتلقّى هنا من لدن الكاتب اسماً أوّل مستعاراً هو غريغور Gregor، كأنّها ليذكر بالحرية الإبداعية التي منحها الروائي لنفسه في معالجة هذه السيرة خصوصاً.

تضادّ التوحد الخلاق والتكتل الرأسمالي. حقبة ظهور واستعراء ونفاجة معتمة يواجهها تسلا بإبداعية كاسحة، نزقة إلى حدّ ما، ومنزّهة، تجرّد وعلوّ روحانيّ سيكون هو الباعث الأساس لمجده وبؤسه في آنٍ معاً. إنفاق كلّ

للطاقة الفردية ولذات اليد، رفض للربح، تقشّف حتّى
الاتحاء، وعبقريّة تطوّر الجنون ثمّ تنكفى أمام حقبة
ترى في الكرم الباذخ والإبداع العلميّ المنقّى من فلسفة
المنفعة والربح عدوها الأساس. وهو ما يلخصه ردّ الفعل
المصعوق الذي يدلي به أحد ممّولي تسلا عندما يعلم بنبئته
في ابتكار نظام يمكن من مدّ المعمورة بكاملها بالطاقة
الكهربائية مجاناً: «منظومتك لا تستقيم أبداً. فإذا أمكن
للعالم كلّهُ أن ينهل من الطّاقة كما يشاء، فما يكون مصيري
أنا؟ وأين سأضع العدّاد؟»

فنّ للبورترتيت في النهاية، رسمٌ نافذٌ لفرادةٍ شخص.
لا كليّة الشخص، فهذا هو وهم السّير الذاتية الكليّة
الذي تخلّى عنه إشنوز بادئ ذي بدء، بل تركيز نهائيّ على
منحنىّ أساسيّ في تجربة الشخص، على خطّ قوّة أو خطّ
هروب يلخص كامل عبوره واختراقه العنيف والصّاحي
لمصيره. منحنىّ يصبح هو المؤشور الذي يقرأ من خلاله
تاريخ رجل. ما من تأويل نفسيّ أو اجتماعيّ أو تاريخيّ
بل رصدٌ موضوعيّ وماديّ لما هو مرئيّ. لا ولع بالأسرار
ولا تعمية ولا ألغاز، بل استنطاق للعجيبة الأرضيّة تماماً،

التمثلة في تصادم خطوط قوى وبروز منحني الشخص في ذروة تقاطع القوى هذه، أو في قلب التيارات المتصارعة. ملحمة متقشفة وشظايا تتخفى على منهج وعلى شعريّة تعمل بالإضمار.

لا إعلاء لنمط بطولي أو سواه، بل تمسك بالعاديّ المفاجئ، وباليوميّ المفارق، والملموس العجيب. جهد ومقاومة، صمود وتعب، وحصّة عالية من الغرابة لا غرابة فيها في حقيقة الأمر، فما هي إلّا اقتناص لفردة شخص مقبوض عليه في مشهده الأليف. الملموس هو هوس رافيل بموسيقاه ورؤيته للعبارات الموسيقية تنتظم في فكره حتّى قبل أن يدوّنها. والملموس هو شغف تسلا بالكهرباء ورؤيته للآلة واشتغالها وهما يرتسمان في ذهنه بتشخيص نهائيّ حتّى قبل أن يرسمهما، إذ أنّ وجوده كلّ صار مساراً ضوئياً وسلسلة التماعات باهرة أو شريط بُروق. والملموس هو عالم إميل زاتويك الذي يشكّل سلسلة طويلة من خطوات راح يوسّع من مداها أو من وثبتها حسب عبقرية اللحظة ومواقع الخصوم.

هذه الأشياء كلّها هي مسائل كتابة، ومجازات عن

الكتابة الأدبية ومشاغل أسلوبية. فما يكون الأسلوب أو الاشتغال عليه إن لم يكن امتحاناً في المسارعة والإبطاء، بروقاً مفاجئة وصراعاً مع الذاكرة واستيلاً للموسيقى من كثافة صمتٍ معبورٍ بشجاعة؟

أسطورة نيكولا تسلا (1856-1943) الشخصية هذه يقيمها إشنوزبشيء من الدّعاة على خلفيّة طبيعيّة. دعاة، نقول، إذ هو من آخر من يؤمنون بإمكان تفسير سرّ العبقريّة بتأثيرات الطبيعة وظروف الولادة. ولد تسلا في ليلة عاصفة في سميليان، التابعة يومذاك إلى الإمبراطورية النمساوية، وإلى كرواتيا حالياً، في كنف عائلة صربيّة، في مكان بلا ضوء، فكان هو المندور لتوسيع رقعة الضوء في العالم كلّه.

شغفٌ بالكهرباء يقوده في أولى ثوراته العلمية والتكنولوجيّة وأبعدها أثراً إلى اختراع التيار المتناوب، الذي يوصل الطاقة بعيداً عبر العالم، بديلاً عن التيار المتواصل المحصور في مساحة ضيقة. مزاج عاصف، شخصيّة غضوب، طبع كاسر، شديد الارتياب، ورفض للملك سيكون هو الباعث في خسارته المأساوية، هو الذي

جعل العلم والعالم يربحان من مبتكراته الكثير، الكثير.
الولايات المتحدة الأمريكية التي هاجر إليها تسلا في
سنّ الثلاثين نقابلها هنا في عنفها اللاّ إنسانيّ كلّ. نصف
قرن من التقدّم العلميّ في مجال الكهرباء وما يرتبط بها أو
يقرب منها يظلّ مقترناً بشخصه، ما يفتر كونه ظلّ حتّى
اليوم مشهوراً جدّاً في أمريكا الشمالية وأوروبا الشرقية،
وأقلّ شهرةً للأسف في فرنسا، حتّى جاء إشنوز فوضع
له هذه السيرة المقتصدة والباذخة، تتقدّم إلينا كمثّل نشيدٍ
هادرٍ، قصيدة استثنائية في توهج النبوغ وعزلته التي نكاد
ننعتها بالتأسيسية.

عبر ابتكاره للتيار المتناوب وللمذياع والأشعة السينية
والهواء السّيال و«التيليكوموند» أو أداة التحكم عن بعد،
والإنسان الآليّ أو الروبوت، ومسرع الجزيئات، وتصوّر
رياديّ للإنترنت، واختراعات أخرى تشترط وجودنا
الراهن والآتي كلّ، يظلّ تسلا أو غريغور حاضراً في
حياتنا أكثر ممّا نتصوّر.

كان مخترع وينسى تسجيل براءة الاختراع، أو لا
يحيطها بالحماية الكافية. اخترع الراديو كما أسلفنا، ولكنّ

اختراعه ارتبط بالإيطالي ماركوني، على أثر سهو ارتكبه تسلا نفسه- وليس هذا هو السهو الوحيد في مشواره العلميّ المديد- في استثمار براءة اختراعه له. والنيون بقوة الضوئية المهرجانية وأضوائه اللاصقة آتٍ من إحدى ألعابه الاحتفالية التي كان يبتكرها لمتعته ومتعة جمهوره، ويهمل تسويقها.

هذا كله متنوع كتابةً إسنوز وتنعمق بما فيه الكفاية لتعبّر عنه وتكتنفه بتكثّم وبراعة. وضمّفه عجائبيّ دون أن يبدو عليه ذلك: تعجيب «على البارد» إذا جاز القول.

يرينا الكاتب في غريغور كائناً معقّداً، حالمًا، ساحراً يجتذب الجمهور إلى حدّ الهذيان بعروضه التقنيّة التي بها حوّل عرض مشاريعه العلمية واختراعاته الجديدة إلى أعياد باذخة، وإلى مسرح أو سيرك من نمط جديد.

راءٍ منهمك ببراءة في صناعة أسطوره الذاتية، طموح منهوب ما فتئ يتعرّض لأذى الحساد والنفعيين، تهيمش راح يتفاقم بقدر ما تتبدّى ملامح فلسفته اللا ربحيّة ونيتته في مدّ المعمورة بكاملها بالضوء الكهربيّ دونها مقابل، تحويل الضوء إلى طاقة تجاّية تكون في متناول الجميع في

كل مكان، وهو ما لم يحتمله عصره وما قد لا يحتمله أي عصر.

فلننظر إلى مشغله الأول ومنافسه الكبير، إديسون، مخترع التيار الكهربائي المتواصل، وهو يشق حربه على التيار المتناوب، هبة نيكولا تسلا الكبرى للإنسانية. لا يركز إديسون إلا على مخاطر التيار المتناوب، التي هي مخاطر الطاقة الكهربائية أصلاً. راح يجزبه على مرأى من الجمهور في إعدام قطط ثم فيل، ثم ابتكر من خلاله أول كرسي كهربائي لإعدام إنسان. هي صفحات ملأى بالسخرية السوداء يرينا فيها إشنوز الرأسالية في وجهها الحقيقي، تكشيرة الموت المتخفية وراء ابتسامة حامل قناع مجدد العلم والمخترع الكبير.

عوائق بلا عدد، غيرة قاتلة، حاجات إلى التمويل دائمة، وعندما تأتي الفوائد الضخمة يقابلها غريغور بعدم اكتراث راح يقوده شيئاً فشيئاً إلى فقر مريع. هي ملحمة اللانسجام: لا تلاؤم العبقرية وحسابات العصر. كان تسلا أسرع من العصر، وحتى النهاية ظل يصدر عن منطق مناوئ لقيمه وحساباته. ما إن أراد إنارة المعمورة

كلها مجاناً كما أسلفنا حتى صاروا يعدّونه مجنوناً ولم يسمعه حتى عندما كان في مقدوره أن ينقذهم ويقلل من أضرار الحرب العالميّة الثانية إذ اقترح بناء أسلحة دفاعيّة تسافر بلا بشر، شاعت فيها بعد تحت تسمية «صواريخ»، واجترح أجهزة وقائيّة سوف تشيع لاحقاً تحت تسمية «الرادارات».

طاقة ذهنيّة وروحيّة عارمة هي إذن هذه التي نبحر في رفقتها على امتداد الكتاب، إبداع بلا حساب، شغف بالطيور صار غريغور في سنته الأخيرة ممرضها المتطوّع حتى طُرد من محلّ إقامته بسبب منها. عشق متكتّم لزوجته ممّوله ومشجّعه، يكاد يخشى أن يبوح بحبه لها إلى نفسه، في ورع إزاء الصداقة الحقيقيّة.

هذه الأعمال الثلاثة عن فتان وعالم وبطلٍ عداء هي تنويعات ثلاثة على مأساة العبقريّة في مختلف وجوها: هرب الزّمن وانكسار التطلّعات وخذلان الجسد والذاكرة وشره المجتمع، بما فيه المجتمع الفنّي والرياضيّ والعلمي. حساسيّات كبرى بلا مناعة، وأناقة في الخسارة، وشموخ في التّيّه.

واللغة تنوّع لتتقرن بأقوى ما يمكن باحتفالية الموهبة
وابتكارية الضوء ولعب المزاج الفنّان وسخاء البذل ومتعة
الاكتشاف وتوقّد الذكاء وكهرباء الذهن هذه التي تسبق
كلّ طاقة وتكون منبع كلّ كهرباء.

ولع بالهابننغ أو الحدث الاحتفالي، أعياد كهربائية
وشعرية نوراتية، يقيمها، من أجل الفرح لا غير، كائنٌ
وحيدٌ، بلا امرأة ولا أواصر حقيقية.

ثمانية وعشرون فصلاً صغيراً ومضغوطاً، كتابة متقشّفة
يمسك كلّ فصل منها بخصلة أساسية أو بطور أساسي
من ملحمة الفرد الاستثنائي هذه. والفصل الرابع عشر
هو تكثيف للبورتريت ندعو إلى قراءته وإعادة قراءته.

سلسلة بُروق: بروق الكهرباء، وبروق أحلام نيكولا
تسلا، هذا المغترب العجيب، ولعان مشاريعه الذي
يخطف الألباب، وبروق كتابة إشنوز الساعية إلى احتواء
هذا كلّه في غرابته وتميّزه وتسارّعه.

واقعية أو موضوعية تصبح سحرية دون أن تتوخى
ذلك. أسطورية واقعية دون أن يكون في ذلك تناقض ولا
أسطورة مقصودة لذاتها. مشاهد حقيقية أو عناصر سيرة

تبدو خيالية لفرط تركيز الكاتب على ما يخرق فيها حدود العادة، وعناصر مبتكرة تأتي نائمة الالتصاق بالحقيقة البيوغرافية أو التاريخية.

مثلَ موريس رافيل وإميل زاتوبيك في كتابي إشنوز الآخرين (يمكن الكلام هنا، ربّما، عن توائم ثلاثة)، ينير نيكولا نسلا عالمه ولا يفلح في تطويعه ولا حتّى في نيل حقوقه منه. غريب عن مطامح الرجال، لا يجد في النهاية عزاءه إلّا بين حمائم جاحدة تتسبّب له بحادث قد يكون مهّد إلى موته.

المراجع

كاظم جهاد

يتقدّم المؤلف بالشكر إلى مارغريت شيني Margaret
Cheney ومارك بولتزوتي Mark Polizzotti.

كلُّ امرئ يريد أن يعرف متى وُلد، ما وَجد إلى ذلك سبيلاً. فالمرء يُفَضِّل أن يكون على بَيِّنَةٍ من اللَّحظة المَرْقُمة التي انطلق منها، أين بدأت الأمور، مع الهواء، والضوء، والأفق، والليالي والحيات، والمتع والأيام. ذلك يَسْمَح بَادئ ذي بدء أن يكون له مَعْلَمٌ أوَّل، قَبْدٌ في وثيقة، رقمٌ صالح لأعياد الميلاد. وذلك يُعْطِي أيضاً نقطة انطلاقٍ فِكْرَةٍ ذاتية صغيرة يَعْلَمُ كلَّ واحد أيضاً أهميتها: كالتّي يُقرِّرها أغلبنا، يَقْبَلُونَ بِحَمَلِهَا معهم باستمرار، مَقْسَمَةٌ إلى أرقام تكاد تكون غير مقروءة، وحتى مُشِغَّةٌ في بعض الأحيان، مُنْبِتَةٌ على سوارٍ في المعصم الأيسر في الغالب دون الأيمن. إلّا أنّ هذه اللَّحظة بالتدقيق، لن يعرفها غريغور أبداً، فقد وُلد بين الحادية عشرة ليلاً والواحدة صباحاً. منتصف

الليل تحديداً أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، وليس بوسع أحد أن يُنبئه بها. بحيث أنه سوف يجهل طوال حياته أي يوم، البارحة أو الغد، يُحقّ له فيه الاحتفال بعيد ميلاده. مسألة الوقت هذه، رغم شيوعها، سوف يجعل منها إذن قضية شخصية. ولكن إذا لم يستطع أحد إعلامه بالساعة المحددة التي جاء فيها إلى الدنيا، فلأنّ هذا الحدث وقع في ظروف مضطربة.

أولاً، قبل أن يُقتلَع من أمّه ببضع دقائق، وفيما كان الجميع منهمكين داخل البيت الكبير - صياح الأسياد، تصادم الخدم، تدافع الخادومات، خصام القابلات وآنات النفساء - اندلع إعصار شديد. أمطار مصحوبة بالبرد غزيرة جداً أثارت تفجراً هامداً، خافتاً، مهموساً، طاغياً كأنها كان يريد أن يفرض صمتاً تقطعه هبات هوائية قارضة. تلت ذلك خاصّة ریح ثاقبة ذات قوّة قصوى حاولت قلب البيت. لم تُفلح في ذلك ولكنها، بضغطها على نوافذ جاحظة انفجر زجاجها واصطفقت أخشابها وتطايرت ستائرُها إلى السقف أو امتصّها الخارج، استولت على المكان لتدمر محتوياته وتُتيح للمطر إغراقه.

تلك الرّيح جعلت كلّ شيء يتراقص، قلبت الأثاث برّفع البُسْط، حَطَمَت وَبَعَثَت نُحْفَ الزّينة التي على المدافئ، دَوَّرَت الصُّلْبَانِ والمصاييحَ المعلقة على الجُذُرَانِ، والأطُرَ التي رَأَتْ مناظرَهَا تَنَقَّلِبُ، وبورترهاها تنكفي على رؤوسها. وهي إذ تُحْمِلُ الثّريات أراجيح تنطفئ على إثرها الشموع، تَنفَخُ أيضاً على كلّ المصاييح.

هكذا جَرَتْ ولادة غريغور في ظلمة صاخبة إلى أن هَلَّ برق عظيم، سميكَ وذو شجون، عمودٌ جامعٌ من هواء محترق في شكل شجرة، وجذوعها، أو في شكل برائن طير كاسر، أنار ولادته، ثم غَطَّى الرَّعْدُ صيحته الأولى فيما كانت الصّاعقة تُلهِبُ الغابةَ في الجوار. كلّ شيء يَخْضَعُ لهذه النقطة وهي أنّ النَّاسَ وسط الفوضى العارمة لا تَسْتَغِلُّ شُعْلَةَ البرقِ الساطعة المذهلة، وَوَضَحَ نهارها الآنيّ ليتأكّدوا من السّاعة بالتدقيق - ولو أنّ السّاعاتِ على أيّة حال، بما تُغْذِيهِ من خلافاٍ قديمة، ما عادت تَتَّفَقُ في ما بينها من زمن طويل.

ولادة خارجِ الزّمنِ إذن، وخارجِ الضّوء، لأنّ النَّاسَ لم يكونوا يَسْتَضِيئونَ إلّا هكذا في تلك الفترة، بالشمع

والزَّيْت، ولم يَعْرِفُوا بَعْدُ التَّيَّارَ الكَهْرِبَائِيَّ. هذا الذي
نَمْلِكُ استعماله اليوم تَبَاطُأً في فرضِ نَفْسِهِ على الأعرافِ
والتقاليدِ، وكان الوقت قد حانَ حَقًّا لَأَنْ يُهْتَمَّ بِهِ. وكانَ
الأمرُ يَتَعَلَّقُ بتسويةِ قَضِيَّةِ شَخْصِيَّةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ غَرِغُورَ
هو الذي سَيَتَكَفَّلُ بِهِ، وهو الذي سَيَكُونُ مَنَوطاً بِهِ وضعه
في نِصَابِهِ.

وبما أنّ مثلَ هذا المجيء إلى الدنيا قد يجعل المرء موتوراً قليلاً، فإنّ طَبَعَ غريغور سرعان ما ارتسم، وكشف مبكراً عن شخص منفّر: جَفول، متعالٍ، فظّ، سَيّ الظنّ. جلب الانتباه سريعاً بنزوات، وفوراتٍ غضب، وانكفاء على النفس، وهروب من البيت ومبادرات مرئجة، وتهديم، وتهشيم أشياء، وتخريب وأضرار أخرى. وأغلب الظنّ أنّه من أجل تسوية مسألة الوقت تلك التي يوليها في الظاهر عناية خاصّة، بادر حالما أمكنه ذلك إلى تفكيك الساعات الجداريّة والساعات الدّقاقة وساعات البيت- ليُحاول تعبّثها فيما بعدُ بالتأكيد، ولكنه لاحظ عندئذ في حنق أنّه إذا كانت المرحلة الأولى لتلك العمليّات تعمل دائماً، فإنّ التوفيق في المرحلة الثانية نادرٌ الحدوث.

إلى ذلك تَبَدَّى أيضاً شديد التأثير، عصبي المزاج، هشَّ البنية النفسية، وخاصةً ذا حساسية غير طبيعية تجاه الأصوات، تُزبكه كل أنواع الضجيج، من ضوضاء أو تردداتٍ أو أصداء: حتى وإن كانت قصية، لا يُدرِكها سَمْعُ أحدٍ غيره، فإنها يمكن أن تُغرقه في هيجان مزعج. كما أنه نهَب لأزمات حادة يستحضر خلالها حتى وهو تحت سماء صافية بَرَقَ مولده، فتستبد به نوبة انبهار تجعله يبدو أعمى، ما يُثير فزع عائلته وهزاتٍ رأسٍ حائرة لأطباء يُستدعون في الحال. على هذا الأساس المضطرب، نما بسرعة غير عادية: سرعان ما صار مديد القامة، وسرعان ما صار أطول قامة من الجميع.

هذا التطورُ المضطرب جرى في مكانٍ ما بجنوب شرق أوروبا، بعيدٍ عن كل شيء عدا البحر الأدرياتيكي، في قرية معزولة، محصورة بين سلسلتين جبليتين دون لجوء ممكن إلى أطباءٍ روح مُجاورين، حيث لا يجد غريغور الراحة أحياناً إلا في التطلع إلى الطيور لساعات. ولكن إذا كانت اضطرابات الطنح تلك تُؤلّد في البداية خشية تجمّعها في جنون مؤسف، فإن أقاربه يُلاحظون أن ذكاه

ينمو في نسق أسرع من نمو بنيته الجسدية.

فبعد أن تعلّم نصف دسّة من اللّغات في خمس دقائق،
وخلّص بغير انتباه من مسيرته المدرسيّة بالقفز على
الفصول بالتّناوب، وخاصّةً بعد أن حلّ نهائيّاً مشكلة
السّاعات- التي لن يلبّث أن يفكّكها ويجمّعها في لحظة،
معصوب العينين، لتعطّي كلّها بعد ذلك على الدّوام الوقت
الصّحيح في أبسط جزئيّة من الثانية⁽¹⁾،- حصل على المرتبة
الأولى في أوّل مدرسة متعدّدة الفنون والعلوم صادفته،
بعيداً عن قريته، حيث التّهّم في لمح البصر الرياضيّات،
والفيزياء، والميكانيكا، والكيمياء، علوماً صارت تسمح
له منذئذٍ بوضع تصوّرات لأشياء طريفة من شتى الأنواع،
مُظهرًا موهبةً فريدة في هذا الباب. فذاكرته كانت في دقّة
التّصوير الشّمسيّ الذي ابتكر مؤخّراً، كما أنّ غريغور،
بوجه خاصّ، كان يُظهر موهبةً تمثّل الأشياء داخليّاً كأنّها
وُجدت قبل وجودها الفعليّ، إذ يراها في دقّة ثلاثيّة الأبعاد
حتّى أنّه، في حركة اختراعه، لا يحتاج أبداً إلى تخطيط، أو

(1) استعمل الكاتب مصطلح nanoseconde أي جزء من بليون من الثانية
(كلّ الحواشي من وضع المترجم).

رسم بياني، أو تصميم تمهيدي ولا إلى تجارب مُسبقة. ما يتخيله يتمّ اعتباره فوراً حقيقياً، والخطر الوحيد الذي يتعرّض له وربّما سوف يتعرّض له على الدوام، خلطه بين الواقعيّ وما يُصمّمه.

وبما أنّه ليس لديه وقت يضيّعه، فإنّ العُدّة التي يتصوّرّها لا تُفضي إلى الأشياء المُلحقة والمبتدلة ولا إلى الجزئيّ. فغريغور لن يكون أبداً من نوع من يُطوّر قُفلاً، أو يُحسّن فتّاحة عُلْب أو يبتكر ولّاعة غاز. عندما تهلّ عليه الأفكار، فإنّها تُطلّ مباشرةً من علّ، من علوّ شاهق، في جسامّة الكون الشّاسع وخدمةً للصّالح الكونيّ. من أوليّات تلك الأفكار أنبوبٌ يوضع في عمق المحيط الأطلسيّ ليُسمح، من بين خدمات أخرى، بتبادل سريع للبريد بين أمريكا وأوروبا. رَسَم غريغور في البداية تخطيطاتٍ مفصّلةً عن نظام الضّخّ، الذي ستكون مهمّته إرسال الماء تحت الضّغط إلى هذه القناة لكي يدفع الأوعية الكروية التي تحوي الرّسائل. ولكنّ مسألة المقاومة النّاجمة عن احتكاك الماء في الأنبوب، وهي مقاومة بالغة القوّة، جعلته يتخلّى عن هذا المشروع، لصالح مشروع آخر لا

يَقِلُّ عَنْهُ طُمُوحًا.

ويتمثل في بناء حلقة عظيمة تُحيط بكوكب الأرض فوق خط الاستواء وتدور بخرّية بنفس سرعة دوران الأرض. فتسمح قوّة الارتكاس بعدئذ بتثبيت تلك الحلقة، ما يُتيح لنا جميعاً أن نركب داخلها ونطوف حول الأرض بسرعة ألف وستّائة كيلومتر في السّاعة ونحن نتمتع بالمشاهد الطّبيعيّة، وبالأحرى هي التي تتقدّم فوقنا: ونحن جالسون على أرائك مريحة- يُفكر غريغور بشروء، ولو بدقّة، في وضع تلاءميتها⁽¹⁾ وتّقانة شغلها-، وهكذا نقوم بدورة في اليوم.

كما نرى، هي ليست مشاريع مُقتضبة لأنّ غريغور لا يناسبه غيرُ التصّدّي للأبعاد السّابعة. من بينها، تولدت لديه مبكراً قناعة بصنع شيء ما بواسطة قوّة المذّ المحرّكة، وتحركات القشرة الأرضيّة، والإشعاع الشّمسيّ، عناصرُ كهذه- أو، لم لا تكون، من أجل اكتساب الخبرة، عن طريق شلّالات نياغارا التي رأى صوراً منها في بطون

(1) ديزاين Design: نظام غايته التّلاؤم الجماليّ في البيئة الإنسانيّة، بدءاً بالأدوات الرّائعة وانتهاءً بتصميم المعالم وتنظيم المدن.

الكتب وبَدَت له مناسبةً لُسْلُمه. أجل، نياغارا. نياغارا، ستكون عمليةً جيّدة.

في انتظار ذلك، ذهب غريغور، ودبلوماسيته المدعوكةُ في جيبه، للعمل في الغرب، في بعض المدن الكبرى بأوروبا الغربية، حيث ستجد كفاءاته، كذلك أكّدوا له، تربةً عضويّةً أخصبَ لانطلاقها. هناك شغلٌ عدّة وظائف، مهندس، خبير، مستشار، دون أن تُرضيه أيُّ منها، ولكي يشغل وقته بين ساعات المكتب، صنع أول ماكينة جدّية. وهي عبارة عن محرّك ذي حثٍّ⁽¹⁾ وتيارٍ متناوبٍ من طراز جديد، قدّمه بكبريائه المعهودة إلى زملائه، فمطّوا شفاههم في البداية. وبعد أن بلعوا غيرتهم، أقرّوا أنّ هذه الآلة قد تُغيّر كلّ شيء، فاعترفوا بخطئهم وتجاوزوا تبرّمهم ونصحوه بالآلا يقف عند هذا الحدّ: لعلّ من الأفضل أن يذهب باتجاه غرب أبعد حيث تربةٌ عضوية جديدة، أكثرُ غنىً وسمنة، قد تُتيح لأفكاره أن تتفتّق على وسعها. يمكن أن نفترض أنّ تلك النصائح ليست منزّهة تماماً وأنّ

(1) Induction: نقل القوّة الكهربائية أو المغناطيسية إلى جسم آخر عن طريق تيار أو مغناطيس من غير اتّصال مباشر.

الزّماء إنّما كانوا يَرون فيها وسيلة للتّخلّص من غريغور،
إذ هو لم يكتفِ بكونه ثَقيلَ الظّل، بل زاد على ذلك بأنّ
غدا مُضجِراً.

ذلك أيضاً أنّ غريغور، حتّى بعد أن تجاوز المرحلة التي
يكون فيها النّموّ قد أدركه الإعياء، كان لا يزال يكبر.

في الثامنة والعشرين من العمر، وبقامة باتت تبلغ مترين، سافر غريغور على متن باخرة تقصد إلى الولايات المتحدة الأمريكية. نزل على رصيف بنيويورك مُزوّداً بجواز سفر وقبّعة دربي⁽¹⁾، وحقيبة تحوي بعض ثيابه، وأخرى تحوي بعض الأدوات، وعشرين دولاراً مطوية في جيب، ورسالة توصية لتوماس إديسون⁽²⁾ مصرورة في جيب آخر.

إديسون مخترع ثريّ وذو نفوذ، يملك شركة «جنرال

(1) Chapeau melon (حرفياً قبّعة في شكل بطيخة) أو Derby hat لدى الإنكليز والأمريكان، وهي قبّعة من اللَّبد ذات قوقعة مستديرة ومنتفخة وحاشية صغيرة مشنبة إلى فوق.

(2) Thomas Edison (1847-1931) مخترع ورجل أعمال أمريكي، من أشهر المخترعين في العالم.

إلكتريك»، صار مشهوراً عالمياً إلى درجة أنه احتلّ، في حياته، شخصيّة محوريّة في رواية لفيليه دو ليل آدم⁽¹⁾ نُشرت في ذلك الوقت بباريس في حلقات متسلسلة بمجلة «لافي موديرن»⁽²⁾. فهو يملك ألفاً وثلاثاً وتسعين براءة اختراع - لا يتورّع في نسبة عددٍ مما أنجزه غيره إليه -، ينسب إلى نفسه منها على وجه الخصوص التلفزيون والسّينما والتّسجيل الصّوتيّ، دون ذكر الكهرباء التي ستشغلنا هنا بقدر غير قليل.

عندما ابتكر توماس إديسون في البداية، بعد أشياء كثيرة أخرى، المصباح الكهربائيّ المتوهّج، وَضَعَ منظومة توزيع لشحن تلك المصابيح قبل أن يُدشّن، بعد ذلك بعامين، أوّل محطة لتوليد الكهرباء في العالم. ولما وصل غريغور، كانت تزوّد تسعة وخمسين زبوناً يقطنون في مانهاتن، في الدّائرة المحاذية مباشرةً لمخبر إديسون، بتّيار

(1) Auguste de Villiers de L'Isle-Adam (1838-1889) كاتب فرنسيّ

ألّف في القصة والرواية والشعر والمسرح، ومهد لظهور التّيار الرّمزيّ.

(2) La vie moderne أو «الحياة العصريّة» (1879-1883) مجلّة أدبيّة فرنسيّة

تابعة لجورج شرينتييه (1846-1905) ناشر أعمال رموز المذهب الطّبيعيّ

كزولا وفلوير وموباسان.

متواصل بقوة 110 فولت⁽¹⁾. ولكن ذلك في نظره لن يكون سوى بداية: فقد طوّر المنظومة منذ وقت قريب بإنشاء شبكة تُزوّد مختلف المعامل والمصانع وكذلك المسارح المنتشرة في نيويورك. كلّ ذلك لا يتطلّب إلا أن يزيد في حجم المشروع ولكنه يستوجب أموالاً واستثمارات. غير أن الممولين فيما يبدو لا يتبينون بعدُ كما ينبغي كلّ مزايا هذه الكهرباء - باستثناء أوفرهم ثراءً، رجل يسمّى جون بيربونت مورغان. رهيب ومهيب بسبب نفوذه وطبعه الفظّ، وكذلك بسبب بُعد نظره: فهو يؤثّر ألا يقول شيئاً في انتظار ساعته، إذ أدرك في الحال أنّه، منذ أن اخترع أرخميدس البرغيّ، لم يوجد في تاريخ العلوم برمته شيء أفضل من هذه الطّاقة.

كان غريغور وسيماً، بالرّغم من قامته العملاقة، مشيق القوام، أنيقاً، ذا مظهر واثق، ووجه طويل يعبره شاربان فخمان، ولكنه كان في حال من الخجل لدى وصوله عند إديسون الذي لم يكن مظهره يوحى بالرّهبة - وربّما بسبب

(1) فولت أو فُلت، نسبة إلى الفيزيائي الإيطالي ألساندرو فولتا Alessandro Volta (1745-1827) ويقصد بها وحدة القوّة المخرّكة الكهربائية.

من ذلك. فتوماس إديسون رجل قبيح، محني الظهر، أخرق وبغيض، يجرّ رجله حين يمشي، شارد النظرات، ملفوف على الدوام في مآزر من القطن المائل إلى اللون الرملي الرديء أو البني الرديء، كانت تحيطها له زوجته ويزررها حتى الذقن. أضف إلى ذلك أنّه أصمّ منذ سنّ الثالثة عشرة نتيجة حمى قرمزية عنيدة، عاهة لم تمنعه من أن يتخيّل ويصنع، قبل سبع سنوات، أوّل فونوغراف.

زد على ذلك أنّه، عندما حضر لديه غريغور، كان مزاجه عكراً: منذ بضعة أيام، تكاثرت الحوادث في تجهيزاته التي تعمل بالتّيار المتواصل، سواء في مقرّ عدّة شركات أو لدى الخواصّ. وبعد أن ذهب كلّ مهندسٍ يصلحون على وجه السرعة تجهيز بيت عائلة فندربيلت، في الشارع الخامس، ها أنّ شركة ملاحه تتصل به للتّو لتُعلمه أنّ مولات الدينامو بسفينة أوريجون، التي زوّدتها بها شركته، أصابها عطب هي أيضاً: الباخرة مضطّرة أن تبقى على الرّصيف، والشركة تخسر كلّ يوم أموالاً مُبالغاً فيها وتُهدّد برفع قضية ضدّ إديسون. لم يبق لإديسون، الذي يعادل بُخله فظاظته، مستخدمون على ذمّته حين ناوله غريغور في حيّاء

رسالته، التي تعرض خصاله ككهربائي. صدفةً ومن غير أمل، ودون أن يلقي إديسون على الشاب نظرة، ما كاد يقرأ الورقة حتّى أرسله يعاين ما يجري على متن الأوريجون. وجد غريغور في البداية بعض الصّعوبة في العثور على وجهة الميناء، ثم على الرّصيف الذي رَسَتْ به السفينة، رصيف تحلّق فوقه نوارس جلبت أنظار غريغور، فهو يهتم دائماً بكلّ ما يطير، خصوصاً، ولا ندرى لماذا، الحمام واليهام والترغل⁽¹⁾ وما لفّ لفّها. ولكنّ حسناً، حتى طائر زُمج الماء لا يقلّ عنها أهمية. بعد أن تابع تحليقها وغوصها في الماء برهة، دلّه وكيل شحنٍ خشن إلى مسلك حجرة الآلات حيث انغلق وحده مع أدواته. ولما عاد في صبيحة الغد إلى مكاتب إديسون، قبل هذا تشغيله مساعداً دون أن ينبس بلفظٍ مقابل أجرٍ ساعٍ بفندق.

(1) Tourterelle: جنس طير من فصيلة الحماميات.

مساعد، من وجهة نظر إديسون، يعني رجلاً صالحاً لكل شيء، رجل عمل شاق قبل أن يكون رجل ثقة، وسينمثل دور غريغور خاصة في طاعة مختلف الأوامر، أعمال خدم وحتى أعمال منزلية، دون حق مخصوص في الكلام، مع تأمين الدوام في الوقت نفسه لتدارك الحوادث التي ما انفكت تزايد وتبدى في التجهيزات التي توفرها شركة جنرال إلكتريك. استمرار تلك الأعطاب، في ذهن غريغور، بدأ يوحى ثم ينمي الشك في مبدأ تجهيزات إديسون نفسه، أي التيار المتواصل.

هذا التيار المتواصل⁽¹⁾، لنحاول فهمه. هو تيار - بمعنى

(1) أو التيار المستمر *Courant continu*، يقابله التيار المتناوب أو المتردد *Courant alternatif*.

تنقل الكهرباء- لا تنتقل فيه الإلكترونات باستمرار إلا في اتجاه واحد. ومولداته الدينامو تُنتج جهداً⁽¹⁾ ضعيفاً نسبياً، وهو ما يتطلب شدة تيار⁽²⁾ هامة. من هنا تأتي ضرورة استعمال كبلات⁽³⁾ غليظة مع ما يتبع ذلك من خسائر جسيمة، لأن مقاومة تلك الكبلات تحول جزءاً من التيار إلى حرارة. والحرارة لا تلبث أن تقود إلى شرارة، التهاب، مصيبة، وكلاء تأمينات ورجال مطافئ، وهذا أمر مزعج. ثم إن التيار المتواصل من ناحية أخرى لا يمكن أن يُنقل أكثر من ثلاثة كيلومترات في هذه الكبلات، غير المؤهلة لتحمل الضغوط المرتفعة الضرورية للإمدادات البعيدة. فيضطّر الناس، شأن جيران إديسون، إلى الإقامة قريباً من محطة مركزية للانتفاع بالكهرباء. زد على ذلك، وبناءً عليه، يعاني هذا النظام من إخلالات كبرى: حرائق منتظمة، أعطاب مزمنة وحوادث متواترة: شكاوى، قضايا،

(1) الجهد Tension هو فرق القوة الدافعة.

(2) شدة التيار Intensité هي كمية الكهرباء المارة بموصل خلال وحدة زمنية.

(3) جمع «كبل»، من الإنجليزية cable، ويتكوّن الكبل أو الكابل الكهربائي من سلكين أو عدة أسلاك مضمورة في إصمامة واحدة وتخدم في نقل التيار الكهربائي.

تعويضات. وأياً كان رأي توماس إديسون، فالأمر لا تسير كما ينبغي.

كان غريغور قد تنبّه أثناء دراسته إلى أنّ الأمور لا تسير كما ينبغي حينها لاحظ آلة من النوع نفسه قدّمها له أستاذ الفيزياء. ولما كانت تُصدر شرراً كثيراً، فقد اقترح عليه في استحياء تعويض التيار المتواصل بتيار متناوب، أي تيار يُغيّر وجهته بانتظام وعلى مراحل - أفلن يسير بشكل أفضل؟ هزّ المدرّس كتفيه مبتيناً أنّ مثل هذه الفكرة تقوم على الحركة الدائمة، وبالتالي على المستحيل، ولم يُلحَ غريغور.

منذ بدأ غريغور بالعمل في شركة جنرال إلكتريك، أثار مرّة أو اثنتين فرضيّة التيار المتناوب هذه، ولكن أمام فورة إديسون لذكرها وكأنّه أتى على ذكر المسيح الدجال، لم يُلحَ غريغور أيضاً. في انتظار ما يجدر، ورغم أنّه كسب تقدير رئيس عمله بتوصّله إلى حلّ عدّة مشاكل تقنيّة، والعمل سبعة أيّام في الأسبوع وثمانٍ عشرة ساعة في اليوم، تولّد في ذهن إديسون المرتاب شكّ: أن يذكّر فردٌ في مثل هذه الموهبة والمواظبة حلاً آخر غير التيار المتواصل

كان من شأنه أن يُفَتِّحَ ريبته ويطوِّرها. وبعد أن وصف غريغور لإديسون كيف يمكن أن يُحَسِّنَ مردود مُولِّده، قال له رئيس العمل: حسناً، دونك وإياه! لك خمسون ألف دولار لو تُفْلِح. وأقبل غريغور على ذلك طوال ستّة أشهر كان المولّد إثرها فعلاً في صحّة جيّدة: أسرع غريغور يُخبر مُشغِّلَه.

حسناً، هتف إديسون المتهالك على أريكته، هذا حسنٌ، حسنٌ جداً. صحيح أنّك مسرور، سأل غريغور في ضيق. مفتون، صرّح إديسون، مبتهج. بناءً عليه، غامر غريغور بالقول دون أن يتمكّن من إنهاء جملته. بناءً على ماذا، قاطعه إديسون الذي تقبّض وجهه. بصراحة، تشجّع غريغور، يبدو لي حسبما فهمت أنّ خمسين ألف دولار... غريغور، قاطعه إديسون وهو يلوي رجله الموضوعتين على المكتب، ألا تفهم الدّعاية الأمريكيّة أم ماذا؟

هذه المرّة، نهض غريغور، واتّجه نحو المشجب فسحب قُبعتَه، ثمّ نحو الباب دون أن يتكلّم أو يُغلق الباب خلفه، ثمّ إلى قسم الحسابات ليتسلّم رصيده، ثمّ إلى الشّارع وهو يتساءل ماذا سيفعل بعد هذه العمليّة الدّنيئة.

المسألة في الواقع بسيطة، سيحاول أن يطور وحده فكرته عن التيار المتناوب. خلال الأعوام الثلاثة التي قضّاها عند إديسون، كان قد لفت الانتباه سريعاً بجودة إتقانه واحترام مواعيده، وجدة حلوله، وما لبثت سمعته كمهندس أن تجاوزت في وقت قصير حدود شركة جنرال إلكتريك. قصد غريغور مقرّ مجموعة من رجال المال وعرض عليهم تصوّراته. وصف المنظومة، نقدّها، سبل تحسينها، أجلّ محدّد وموازنة مفصّلة.

والنتيجة أنّ الأمور سارت على أحسن ما يرام. بفضل موهبته في اللّغات التي ظهرت مبكراً وتمرّسه بالإنكليزية، أتاحت تلك الأعوام الأمريكيّة الأولى لغريغور أن يكتسب بسرعة إلماماً يكاد يكون تاماً بلسان أهل البلاد، علاوة على فصاحة طبيعيّة، وموهبة في إخراج الكلام مخرجاً حسناً، واعتقاد راسخ ما فتئت كلّها تفيده. أعاده رجال الأعمال إليهم في غد اليوم التالي، وأعربوا له عن مدى اهتمامهم، واقترحوا عليه إنشاء شركة باسمه، شركة غريغور للمصابيح الكهربائيّة⁽¹⁾، يستطيع بداخلها أن

(1) Gregor Electric Light Company.

يطوّر بحوثه. بطبيعة الحال، سوف يشكّلون، بتمويلها، أغلبية داخلها، أنت تعرف معنى ذلك، ولكن يُفترض أن يَضَحَّ غريغور أيضاً نصيباً لِيُسَوِّغَ اسم الشركة ونظامها القانوني الجديد. أقرَّ غريغور بأن ذلك أمرٌ طبيعيٌّ وتنازل دفعة واحدة عن كلِّ المال الذي ادَّخره خلال أعوام العمل الثلاثة في شركة جنرال إلكتريك: كلِّ المال، يعني نزرًا قليلاً، ولكن كلُّه على أية حال. وبما أن ذلك الكلُّ لم يكن كافياً، ها هو يقترض بجسارة.

والنتيجة أن الأمور بعد ذلك سارت سريعاً أيضاً. فما إن ابتكر غريغور مصباحاً ذا قوس حصل في الحال على براءة اختراع، ولقي رواجاً سريعاً في السوق، وما إن استرجع شركاؤه استثمارهم مع فائض مقبول، حتّى ألغى نفسه مفصولاً من شركته التي استحوذ عليها الشركاء، وهم سعداء باحتساء هذه الشّمْبانيا الجديدة، أمّا هو فقد أفلس تماماً. وهكذا وجد نفسه في الشارع، حفاراً، وعاملاً، وحمالاً مُثَقَّلاً بالديون في حظائر البناء، طوال أربع سنين.

هي ضربة لثيمة أخرى، ولكن حانت ساعة
الاستراحة، وغريغور لا يفارق قبعته الدّربي في الصّيف
كما في الشّتاء وفي جميع الحظائر. ونحن بالمناسبة في فصل
الشّتاء، ولكي ندفاً، نأكل حبّات بطاطا ولحماً قديداً
ساخناً. القديد ملفوف في ورق شحوم ترك الدّهْنُ على
صفحته أثراً يدلّ بالتحديد على جهة أوروبا الشرقية التي
ينحدر منها غريغور، والتي يستعيد عليها، وهو يمضغ،
بفضل نُتف اللحم، سلسلتي الجبال اللتين تؤطّران قريته،
مؤشراً عليها بكُريّة من لبّ الخبز. يُري بذلك، في غياب
تاريخ محدد، مسقط رأسه لرئيس عمال ألفه بعض الألفة-
وإن كان غريغور لا يأتي شيئاً يولّد ذلك الإحساس.
نحن جالسون على أكياس إسمنت، فوق صناديق،

قرب نار من أخشاب ملطخة بالجبس وسط الحظيرة، في شارع واسع ببروكلين، في ظل عصي الرفوش والفؤوس المغروسة في كُدس من الرمل. مَنْوَرٌ مشبك يفصل الحظيرة عن ذلك الشارع الموحد والصّاحب حيث وشيش الأصوات يمرّ فوق رؤوسنا وحيث تتعجل حركة وفيرة من المارّة، ورجال يمتطون الخيول، وعربات تجرّها ثيران، وعربات تُجرّ باليد، وحافلات مجرورة بالخيّل، عربات يُعدها غريغور بعناية ولو بآليّة، الواحدة تلو الأخرى وبحسب أصنافها، مثلما اعتاد أن يُعدّ كلّ ما يظهر. تنقل في الشارع أيضاً عربات الترام الجديدة ذات المحرك الكهربائي التي لا تفتأ تتعطل، هذا إن لم تنقلب، فتروّع الركّاب والمارّة على حدّ سواء، ويشتكى منها الجميع.

لن تُفلح أبداً، عربات الترام تلك، يعلّق رئيس العمّال الجالس جنب غريغور. هي ليست مطابقة للشوارع. بلى، يقول غريغور، حتماً، سوف تتطابق في يوم من الأيام. الأمر متعلّق بنظام الطّاقة، هذا هو الذي لا يلائم، إنّهُ التّيّار المتواصل. وما أدراك أنت بهذا، يسأل رئيس العمّال. ذلك أنّي مهندس، لو تدري، يرّد غريغور بجفاء، تلك

مهنتي الحقيقية. الكهرباء.

ويطفق، بجمل مقتضبة، وواضحة بشكل عجيب، في شرح مساوي التيار المتواصل، فيما التيار المتناوب يسمح باستعمال محولات من شأنها أن ترفع الجهد أو تخفضه. بفضل تلك المحولات، يمكن أن تُرسل آلافاً من الفولتات على مسافة مئات الكيلومترات، بقدر ما نشاء، بواسطة كبلات ذات جهد عالٍ. أمبيرية⁽¹⁾ ضعيفة، وبالتالي خسائرها قليلة.

نظر إليه الرجل نظرة استغراب في البداية، وهو موزع بين الشعور الغريب بفهم لغة أجنبية بئس، والارتياح من أن يكون محدثه يهذي، ولكن، مع استرسال غريغور في تفصيل قوله، تناقصت نظرة رئيس العمال ريبةً.

في آخر المطاف، ختم غريغور، محولات أخرى توضع لدى المتلقين سوف تقلل الجهد بالنسبة إلى المستخدم الختامي. بذلك يمكن توزيع التيار على مسافات طويلة: لا حاجة بعدئذ للسكن قرب محطة للحصول على الكهرباء. لأجل هذا يكون التيار المتناوب أفضل. سوف

(1) Ampérage : قوة التيار الكهربائي مقيسة بالأمبير.

يُكَلِّفُ أَقْلَ وَيَسِيرَ بِشَكْلِ أَفْضَلِ. نَفْسُ الشَّيْءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى
الْتِرَامِ. وَلَكِنِّي أَزْعَجُكَ بِهَذِهِ الْحِكَايَاتِ.
كَلَّا، إِطْلَاقًا، قَالَ رَئِيسُ الْعَمَالِ، إِطْلَاقًا. لِمَاذَا، سَأَلَ
غَرِيفُورَ، هَلْ هَذَا يَهْمُكَ؟ لَيْسَ ذَاكَ، قَالَ رَئِيسُ الْعَمَالِ،
وَلَكِنِّي أَنَا أَعْرِفُ، رَبِّمَا، شَخْصًا. هُوَ صَدِيقِي.

صديق رئيس العمال هو على وجه الخصوص شخص يعرف شخصاً آخر وبالأحرى هو أحد مستخدميهِ، لأنّه يمارس عنده مهنة كبيرِ خدم. غير أنّ كبير الخدم، إذا كان كبيرِ خدم جيّداً، يمكن أن يصبح مؤتمناً نفاثحه في مواضع أخرى غير إدارة البيت وشؤونه، ونُشْهده بتلقائية على الهموم الحميمة، زوجيّة كانت أم مهنيّة. وهو ما ينطبق فعلاً على مستخدم كبير الخدم هذا، إذ يشغل وظيفة هامة في «ويسترن يونيون تليفراف كومباني»⁽¹⁾، وهي شركة يديرها المقاول جورج وستنغهاوس منافسةً بصورة عرضيّة لشركة إديسون جنرال إلكتريك.

استعادت ذاكرة رئيس العمال بعض أحاديث الحانة

(1) Western Union Telegraph Company شركة الاتحاد الغربي للتلغراف.

مع صديقه كبير الخدم كان حدّثه خلالها، بين قدحين، عن رئيس عمله الذي جعله بمرور الوقت مؤتمناً على أسرارهِ. بعد التّبادل ذي الصّبغة المنزليّة، وبعض الإيجاءات المهموسة عن شكوك تثيرها في نفسه زوجته الشّابة، أفضى له مستخدمُهُ ببعض ما يعترض ويسترن يونيون من مشاكل من بينها، علاوةً على توزيع الغاز والهاتف، مشكلة الكهرباء، شغل جورج وستنغهاوس الشّاغل. وفي هذا الصّدّد يتذكّر رئيس العمّال أنّ الكلمتين اللتين نطق بهما غريغور، تيّار متناوب، ورد ذكرهما فعلاً أثناء الحديث. إن شئت، قال رئيس العمّال، يمكن أن أفتح هذا الصّدّيق في الموضوع. ماذا نخسر؟

لم يعترض غريغور على مثل هذه المبادرة، واستغرقت المعلومة بضعة أيّام قبل أن تصل إلى المستخدمِ عن طريق كبير خدمهِ، ثمّ لا ندري كيف وصلت إلى وستنغهاوس نفسه حيث عبّر عن رغبته في معرفة المزيد. في عمق غرفته التّافهة التي استأجرها مؤثثة، أحسّ غريغور، بعد أن تمّ إعلامه، بالخرج من هذا الاستدعاء المحدّد في آخر الصباح. ليس لأنّه يشكّ في نفسه وإنّما لأنّه كان مُحرجاً

من جهة مظهره: بما أنَّ هذا الموعد يتطلَّب التحلِّي بهندام غير الذي يكون فيه بالورشة، فقد نزل لشراء كُمين وياقة مموَّهة⁽¹⁾ جديدة قبل أن يُلمَّع حذاءه ويفرك بالفرشاة طويلاً بذلته الوحيدة وكذلك قبَّعته الدَّربي.

مقرَّ ويسترن يونيون: بعد ردهة تليها عدَّة ردهات كيلومترية أخرى - ثريَّات، رخام، بُسْط، تماثيل، لوحات، بُسْط جداريَّة - يتخلَّلها بوابون، ويستلزم عبورها وقتاً طويلاً، وفي «ترافلينغ»⁽²⁾ أمامي بطيء جداً، ظهر أخيراً جورج وستنهاوس شخصياً، جالساً خلف مكتب قوطي في عمق قاعة بسعة ملعب. رجل ذو خدَّين متهدَّلين، فارع وضخم بشكل بارز، خالٍ من منطقة وسيطة بين الرَّأس والكتفين، مُصَفَّح بسلاسل ساعة وشاربي فيل بحر، مقتصد في كلامه. وبنظرة زرقاء باردة يلقي بها من عليائه، إذ لا وقت لديه بضيقه، مدَّ يده الغليظة المؤنَّقة،

(1) Faux-col: ياقة نقالة يمكن قلبها إذا بليت، وكانت تستعمل بكثرة حتَّى مطلع القرن العشرين. وتوضع تحت السَّتر، وكذلك الكَمَّان، لتوحي بمجموعة بوجود قميص تحت السَّتر.

(2) Travelling: بالإنكليزية في الأصل وتعني تحريك الكاميرا خلال التصوير إمَّا بموازاة الشَّخص المتحرِّك أو للاقتراب منه والابتعاد عنه والطَّواف حوله لإظهار مختلف ملامحه.

المتقلّة بخاتم شعارات⁽¹⁾ من المعدن المسبوك يشير على غريغور بأريكة.

وهو جالس في شكل زاوية قائمة على حافة المقعد، ويداه متكئتان على ركبتيه دون أن يلجأ إلى المتكأين أو المسند، ذكر غريغور على عجل وبإيجاز أعماله السابقة- الحقل المغناطيسي الدّوّار، تصميم ماكينة غير متزامنة- ولكن، لمجرّد ذكرها فقط، والحديث عنها عرضاً قبل أن يستعرض أفكاره عن التّيار المتناوب. هذا هو الموضوع الوحيد الذي تبسّط فيه، دون أن يكلف نفسه عناء مقارنته بالمنظومة المتواصلة التي يملك إديسون حقّ التصرف فيها بلا منازع. وهو وإن لم يُعد أكثر ممّا قال لرئيس العمّال، وإن عرّف كيف يُعمّقه أمام مهندس، فقد عرض حُججاً وحسابات بطريقة فيها من الحسم ما جعله يُقبل على سبيل التجربة، عقب لقاء دام نصف ساعة، في منصب مستشار. وسوف يمنحه وستغهاوس الوسائل الكفيلة بتطوير منظومته: مختبر، مساعدان، معدّات لازمة وراتب

(1) Chevalière: خاتم كبير القفص تُنقش أو تُحفّر عليه شعارات صاحبه أو أحرف اسمه الأولى.

في الحدود الدنيا، مشروطة بنتيجة على المدى القريب.
وبعد أن سوى غريغور عند الظهيرة رحيله من
الحظيرة، ونفح رئيس العمال كأساً، باشر منذ صبيحة
الغد عمله. ومن دون إطالة، صمّم في أقلّ من شهر محرّكاً
ومولّداً ومحوّلاً حسب فكرته. اختبارات ومراجعات،
طلب تسجيل براءات اختراع، موافقة بهزة رأس من
وستنغهاوس، ثمّ قرار بإقامة تلك الماكينات في كلّ مكان.
يبدو أنّ الأمور تسير على ما يُرام، وأنّ الحياة بدأت تتحسن
قليلاً.

هي الطف، وفي بعض الأماسي، عندما يغادر غريغور
المختبر، يجد الوقت للتمهّل برهة في الحدائق العامة،
حديقة ريزرفوار بارك خاصّة، حيث يشتري لنفسه كيساً
من الفشار وكيساً آخر من الحبوب للحمام الذي يرتادها.
كان يقصدها دائماً لأنّه لا يزال وحيداً، وبخلاف نظرائه،
كان يبدو أكثر اهتماماً بتأمّل تلك الطيور، من تأمل البنات،
مثلاً.

سوف تدور الحياة عمّا قريب دورة أكثر إيجابية بعد أن
اقترح وستنغهاوس على غريغور توقيع عقد مع ويسترن

يونيون. حسب بنود العقد وعلاوة على راتبه، سوف يحصل على دولارين ونصف عن كل حصان بُخاري للطاقة الكهربائية المبيعة- وهذا أمر ليس ذا بال لأول وهلة، ولكنه أحسن من لا شيء. كما أنه سوف يُشرع في عملية البيع، بشكلٍ جذّي. بعد عملية التدشين التجارية، بات ينبغي توزيع التيار المتناوب المتعدد الأطوار على نطاق واسع لتزويد كامل أمريكا الشمالية به. حسب خطة غير مسبقة. ومن مؤسسة ضخمة. جميع الصحف تتحدث عن ذلك. وإديسون يقرأ الصحف.

في الأوقات اللاحقة، بدأ عدد هام من القطط والكلاب، من السيامي إلى الفارسي، ومن الدزواس إلى الكزلان⁽¹⁾، يختفي بوتيرة غير طبيعية في الأماكن المحيطة بمختبر جنرال إلكتريك ومكاتبها.

ذلك أن إديسون، بعد أن قرأ الصحف، وتناهدت إلى علمه أخبار، قرّر أن يقوم برّد فعل. أمام الخطر الذي يهدّد احتكاره مُثَمِّلًا في انطلاقة التّيار المتناوب العلّنة، يحدّر تطويق المنافسة. ينبغي تحذير الرّأي العام، والعمل بدأب على الطّعن في قيمة هذه التّقنية الجديدة التي قد تُفقد سوقاً مزدهرة. وهكذا وضع خطة من شأنها أن تصدم الأذهان.

(1) Carlin: كلب أفتس الأنف قصير الوبر، نسبة إلى الاسم الفنّي للممثل المسرحي الإيطالي Carlo Antonio Bertinazzi (1710-1783) الشهير بكارلان.

إذا كان جيران جنرال إلكتريك يستغربون، ويحاربون من أن حيواناتهم الأليفة تتغيب بشكل مفرط، فذاك لأنّ تجارة غير مشروعة كانت قد بُعثت حديثاً في المنطقة. كان أعوان إديسون يقترحون على أطفال الحيّ، والبسمة على وجوههم، شراء كلّ الحيوانات الأليفة التي يعثرون عليها، مقابل خمسة وعشرين سنتاً عن الحيوان الواحد. والأطفال، بما في طبعهم من خسة، راحوا يقبضون عليها بأعداد غفيرة ويبيعونها حسب الاتفاق لتغدو محلّ فرجة. ألقت الحيوانات أنفسها مُحزّمة على فراش من القش في الشارع، أمام حشد من المارة، يُقدّمها مُروّج، لتتعرّض بعد خطبة موجزة إلى شحنة تيار متناوب تكون نتيجتها كما نتصوّر، غنيّة بالدخان، والشرر، والنشيش والجلبة، وروائح اللحم المحروق، وتصلّب جيّفي. انطباع حادّ لدى المارة. من هنا، وبعد أن ثبتت الأخطار الرهيبة لهذه التكنولوجيا، لا يمكن إلّا أن نندد بها، ونُدين آثارها غير المرغوب فيها، ونحرّض الناس على رفض إدخالها إلى بيوتهم.

وبعد أن قدّر أن الحيوانات الصّغيرة الحجم غير كافية،

تقرّر إجراء تلك التجربة على حيوانات أكبر حجماً على مرأى جمهور لا يني يتزايد، فيما كان المساعدون يجولون وسط المتفرّجين، ويوزعون مقالات طعنٍ مرعبة تُقدّم، إذا كانت الحاجة لا تزال تستدعي ذلك، التّيار المتناوب كخطر مُميت. وهكذا تمّ أمام الناس صَعَقُ عددٍ من الخرفان، والعُجول، والثّيران، والخيول- وكان غريغور يتابع ذلك عن بُعد ولكن دون أن يتأثر، فكلّ تلك الثّدييات المُضْحَى بها لا تُحرّك فيه ساكنات: ما داموا لا يلمسون الطّيور، فلا ضير-، باختصار كانوا يقتلون حيوانات لا يفتأ حجمها يتزايد إلى أن صاروا يفكّرون في مطاولة الدّروة، الحيوان الأكبر.

وهذا جاء في وقته، إذ أنّ فرصةً سنّحت. ففي لونا بارك بكوني آيلند، صدر الحكم بالإعدام حديثاً على أنثى فيل. هذه الفيلة، واسمها توبسي وعمرها ثمانية وعشرون عاماً، عملت بمشقة طوال حياتها في السّيرك، وما عادت تحتمل تمارينَ توازنٍ على الرّجل لا تنتهي كانوا يَغصّبونها عليها. إذا كانت تلك التّمارين تؤمّن نجاحها، فقد كانت أيضاً تعذبها بإثارة آلام في المفاصل لا تلائم طبعها حتّى أنّها من فرط حنّقتها، في لحظة انفعال قصوى، تركت ثلاثة

مُروّضين مُغالين يُسَحِّقون. قرار الحكم: الإعدام. فكّروا في البداية، من جرّاء فعليتها تلك، في شنعها- على غرار ما سوف يُنفَّذ بعد ثلاث عشرة سنة على أختها في الفصيلة بيغ ماري- ثم في مدّها بطبق من الجزر متبل بالسيانيد⁽¹⁾، غير أنّ الحذرة توبسي لم تلمسه. عندئذ اقترح عليهم إديسون أسلوبه.

جاء ذلك في وقته ولكن يُفترض أنّ تتمّ الأمور في إخراج كبير، وأن يُحسّن نمط البثّ خاصّة. والحال أنّ إديسون كان مولعاً بالسينما، ومن فرط ميله إلى إقامة الدعاوى، كان يقود حربَ عقودٍ حول هذا الفنّ الجديد. بل إنّهُ هو الذي كان يتولّى إنتاج أول «ويسترن» وأول فيلم قُطّاع طريقٍ في العالم، «سرقة القطار الكبير»⁽²⁾، حيث يبدو في مشهده الأخير أحدُ الخارجين عن القانون⁽³⁾ وهو يطلق

(1) Cyanure: مادة سامة، تعرف كيميائياً بسيانيد البوتاسيوم وهو مركب لاعضوي يحمل الصيغة KCN عديم الرائحة شبيه بالتسكر المسحوق، وقابل للانحلال بسرعة.

(2) The Great Train Robbery (عُرف بالفرنسية بـ Le Vol du grand rapide أو L'Attaque du grand train rapide) فيلم أمريكي أخرجه عام 1903 إدوين ستانتن بورتر ووالاس ماكاشيون.

(3) بالإنكليزية في الأصل Outlaw .

رصاصه نهائية على الجمهور المروّع. ولكن في الوقت ذاته الذي انطلق فيه في الأفلام الروائية، سوف يفتح أيضاً الفيلم الوثائقي.

صَغَقُ الفيلة، بعد أن تمّ تصويره بعناية إديسون أمام ألف وخمسمائة شخص، راح يُبَيِّث في كافة أنحاء البلاد. نرى في الشريط، تحت أنظار جمهور مأخوذ، صفيقة الجلد اللامبالية وهي تقف في مرح أمام الكاميرا، جذلة مثل سُرشور، رغم أنّ قوائمها وخرطومها موصولة بكبلات إلى مولد. ولكن توبسي لا ترتاب من أيّ شيء، لأنها معتادة على مثل تلك العوائق منذ أن قُبِض عليها بُعِيدَ مولدها في غابة بأوريسا⁽¹⁾. ولما أوقفوها على صفيحة معدنية، سلّطوا شُحنة بستّة آلاف وستمئة فولت. وما لبث أن تعالى دخان سميك من الروابط الموصولة بجسد الفيلة التي خرّت في الحال مثل منطاد مثقوب، كيس كبير أُفْرِغ فجأةً من محتواه، وتهاوت قوائمها نحو الجهات الأربع. وهو ما كان ينبغي إظهاره. صفق الناس بحرارة.

(1) Orissa التي صارت تعرف بـ Odisha منذ نهاية 2011، هي ولاية ساحلية بغرب الهند.

وبينما كان إديسون يبذل ما في وسعه، كان غريغور أيضاً لا يُضَيِّع أيّ دقيقة. كان لا بدّ أن يمرّ إلى شيء آخر. لا يمكن أن يتوقّف في مكانٍ ما أو حتّى يَنشُد استراحة، ويكتفي بطلبات وستنغهاوس التي أنجزها. فلم تكن تلك في أساسها سوى تطبيق فكرة صاغها منذ وقت طويل، قبل عشر سنوات في حديقة عامّة بأوروبا الشرقيّة. اضطرّ إلى الانتظار مدّة قبل تجسيدها ولكن ما إن جسدها حتّى غدّت، في ذهنه، من آثار الماضي.

ودون أن يستريح إلى راتبه الجديد أو يترك لنفسه فسحة من الوقت كي يرى ما يأتي، انغمس على الفور في تطوير مصايحه ذات الأقواس مع عدّة مشاريع تخصّ الضوء، ومن بين أشياء أخرى محرّك حراريّ مغناطيسيّ، وموَلّد حراريّ مغناطيسيّ وعاكس تيار لماكنة ديناميّة كهربائيّة. لا لكونه مضطراً أو يحسّ أنّه مُرغم من أيّ كان على الإنتاج،

وإيجاد أفكار جديدة، والابتكار دائماً، وإثباتاً لأنّ ذلك فوق
طاقته، لكونه في هذا المجال وفي نظره هو- إذ يملك،
والحقّ يقال، فكرة سامية عن نفسه- أخصب خيالاً من
الجميع.

أنّ تشتغل كلّ تلك التصميم كما رسم وقدر-
التجارب تدور دائماً حسب توقّعاته- متأتّ، قبل صنع
الماكينة، من تلك القدرة الفريدة على رؤيتها بالتحديد في
ذهنه، في أبعاد ثلاثة وفي كلّ جزئياتها. في سرعة فائقة،
تبدّى له قطع الآلات حقيقة وتكاد تلمس في كلّ خاصيّة
من خاصّياتها، حتّى السّيرورة نفسها التي بموجبها سوف
يظهر بلى هذه الآلات.

ولكنّ مثل تلك المملّكات، وخاصّة ذلك التّدخل
المفرط للواقع في الخيال، وطغيان الفكرة التي تنوهم أنّها
هي المادّة، هذا كلّه يمكن أن يقطع الفرد قليلاً عن العالم،
أو عمّن يشتغلون على هذه المادّة على أيّة حال. لذلك،
عندما اقترح وستنهاوس أن يضع معاونين في خدمة
غريغور، لم تجرّ الأمور أبداً كما يُرام. فهو يحقّر بجلاءٍ
لوحات رسومهم، مفضلاً عليها بناءاته الداخليّة الفوريّة،

ويعامل مساعديه بخشونة، مسلطاً عليهم انفعالاته الفجائية، ويكيل لهم اللوم متعالياً عليهم باحتقار حين لا يفهمون بالسرعة المطلوبة، ويبدلهم بسواهم بوتيرة حامية إذا لم يكونوا هم الذين أسلموا أمرهم وانصرفوا من تلقاء أنفسهم. وسرعان ما بدا أنه يفضل العمل وحده، دون حضور أحد، باستثناء محاسبه.

بدا أيضاً من جهةٍ أخرى أنه يفضل البقاء وحيداً والعيش وحيداً بوجه عام، أن يتملّ ذاته في المرأة خير من التطلع إلى الآخرين، وأن يستغني عن النساء رغم أنه ينال إعجابهنّ كثيراً لأنّه وسيم جداً، وفارعٌ جداً، ولامع وذو حديث جذاب، لم يبلغ بعد أربعين عاماً، فهو صالح لأن يُستحوذَ عليه. إذا كان صحيحاً أنه لا يرفض، وهو الذي لا يحبّ الرجال بشكل أفضل، أن تتزاحم النساء خفية حول شخصه، فإنّه يبدو حتّى الآن غير راغبٍ كثيراً في اقترابهنّ أبعد من عتبة محدّدة. ولكنّ هذا مرهون أيضاً ببعض نقاط خاصّة في طبعه.

طبعٌ في الواقع لا يُطاق، بعضٌ ميزاته، ولن نذكر سوى اثنتين، كانتا تشغلان غريغور بشكل لا يدع له خلوة.

أولاً انشغاله البالغ بالميكروبات، والبكتيريات العصبية الشكل وكل نوع من أنواع الجراثيم، ما يضطره إلى تنظيف كل ما يحيط به باستمرار، بشكل مفرط ودون أن يعهد بهذه المهمة إلى أحد، فيغسل يديه من قبل، ويغسل يديه من بعد. ثم هوسه بعد كل شيء، بصفة دائمة، وهو شغل يستغرق كثيراً من الوقت، ومُرغم إرغام قانون. يعدّ حجر تبليط الشوارع، درجات السلالم، طوابق العمارات، يعدّ خطواته نفسها من مكان إلى آخر ويقارن النتائج كل مرة، يعدّ المازين في الأنهج، والسحب في السماء، والأشجار في الحدائق الصغيرة العامة، والعصافير في تلك الأشجار وفي السماء حيث يختص من بينها الحمام بعدّ وحده.

المال فقط هو الذي لا يعدّ غريغور بصفة خاصة، كأنه خارج عن القانون- وهو ما يفسر الحضور الضروري والدائم لمحاسب-، فغريغور لا يشغل به باله. لأن نشاط العدّ ذاك يأخذ منه وقتاً أكثر لكونه ليس آلياً فحسب، بل هو يحتاج أيضاً دائرة الانفعالات: في الزخم اللامتناهي للأرقام التي تشغل ذهنه، يوحى كل واحد منها لغريغور بشعور خاص، نكهة متفرّدة، لون خاص به وحده، فلا

شيء يعادل محبته الكبرى للأعداد التي تقبل القسمة على
ثلاثة، رقم جيد، نعرف ذلك، يصلح في كلّ المناسبات.
كلّ ما يقبل القسمة على ثلاثة، في نظر غريغور، أفضل. لا
شيء لديه أجمل من مضاعف ثلاثة.

عمليات صَعَق الحيوانات بالكهرباء، التي صارت تُقام بشكل منظم في كل مفترقات الطرّق قبل عرضها على أولى الشاشات، كان لها في البداية أثر بالغ في نفوس الناس، ثم تواصل أثرها ولو بدرجة أقل، هذا صحيح، ولكن قد يجيء يوم لن يكون فيه حتى صَعَق الفيلة كافياً. فالتناس تملّ بسرعة، لفرط تفاهة الإنسان، إلخ. وإذ عاين إديسون وجنرال إلكتريك ذلك، بدأ يتساءلان، ما دام الأمر على ما هو عليه، ألن يكون تطبيق التّيار المتناوب على كائن بشري أكثر صراحة ووضوحاً واستعراضية، وجديراً بالتأثير في الأذهان بشكل أفضل وإقناع الرّأي العام بأخطاره. بقي أن نضع اليد على متطوّع.

بطبيعة الحال، ما ينقص هم المترشّحون، فهؤلاء لا

يتدافعون للتضحية بأرواحهم عن طيب خاطر. بعد مساعٍ طويلة وأبحاث خفية داخل مختلف المؤسسات، من ملاجي وميئات ومصحات، حول بعض الأفراد المكتئين، والذين سئموا الحياة ساءاً قد يُغويهم بمحاولة الحبل، أو الإستركنين⁽¹⁾، أو السقوط من شاهق، أو العتيق «45 لانغ كولت»⁽²⁾ أو الحديث «7,65 براوننج»⁽³⁾، تبيّن ألا أحد بلغ به السأم حدّ التفكير في الصعقات الكهربائية. ساد فتور همة، وبدأ التفكير في التخلّي عن المشروع، إلى أن بدا أنه يمكن الإمساك أخيراً بالمرشح المثالي.

هذا الزبون الأوّل، حبيس سجن سينغ سينغ، هو رجل يدعى وليام كيملر، كان قد أباح لنفسه مؤخراً قتل خليلته بفأس. إلا أنّ مثل هذه الممارسات لا يُنظر إليها بعين الرضى، وتأثير الكحول لا يبرّر أيّ شيء. ارتأت المحكمة أنه ليس من المديّة في شيء أنّ يُخدّع المرء هكذا

(1) Strychnine: مادة سامة تُستخلص من بعض أنواع الجوز، وتُستخدم كمّيات قليلة منه في الصيدلة.

(2) 45 Long Colt: مسدّس طويل البطانة ينسب إلى صانعه الأمريكي صامويل كولت Samuel Colt (1814-1862)

(3) 7,65 Browning: مسدّس من عيار 17 ملم، ينسب إلى صانعه الأمريكي جون موزس برونينغ John Moses Browning (1855-1926).

خليلته، فحكمت عليه بالإعدام، وهو حكم لم يعترض عليه، منطقياً، المدعوّ كيملر نفسه.

حتى ذلك الحين، في مثل تلك الحالات، كان يُعمد إلى الشنق. إلّا أنّ إديسون، باستعمال علاقاته، وتقديم البراهين على أنّ منظومته الجديدة أكثر إنسانية من المشنقة العنيفة، وأسرع، وأنظف صحياً وأقلّ إيلاماً، تدبّر أمره في إنشاء تجهيز مناسب داخل السجن الإصلاحيّ. واعتباراً لأنّ من يخضع لمثل تلك المعاملة يستوجب نوعاً من الرّفاه، تقرر أنّ من الأفضل أن يكون المرشح لها جالساً: لذلك قُطعت شجرة بلوط كانت تنمو بكلّ براءة في فناء السجن، وجُرّئت، ومن حطبها صنع رفاق كيملر المساجين أريكة بسيطة. في هذه القطعة من الأثاث تُبَت صاعقان ملفوفان بإسفنجات نديّة، موصولة إلى دينامو من موديل وستغهاوس تَمّ الحصول عليه بطريقة غير شرعيّة. وفي فجر يوم من أيّام أغسطس في السّاعة السادسة، في حجرة مضاءة -ويا للمفارقة!- بالغاز وأمام عشرين شاهداً من صحافيتين وكهنة وأطباء، أُجلس وليم كيملر على المقعد البالغ الجِدّة ذاك.

محاولة الإعدام الأولى أخفقت: بعد صدمة كهربائية ذات ألف فولت، سُلّطت عليه لمدة سبع عشرة ثانية، كان كيملر لا يزال حيّاً. كانوا يودّون طبعاً إعادة التجربة في أسرع وقت ولكنّ المولّد كان بحاجة إلى وقت معيّن لكي يستعيد شُحنته. وكان لا بدّ إذن من الانتظار برهة طويلة، فاصلاً مُضجراً كان يمكن الاستماع خلاله لصراخ وأنين من كيملر، المحروق بفضاعة، ما خلق جوّاً مذهلاً في المكان. وبعد أن شُحن المولّد، أُجريت المحاولة الثانية خلال الدّقيقة الطويلة التي رُفِع خلالها الجُهد إلى ألفي فولت: فانتشرت بسرعة عندئذ رائحة لحم مشويّ فيما كانت شرارات طويلة تنبعث من أطراف كيملر، وعرقه الغزير يتحوّل تدريجياً إلى دم، وعمود دخان كثيف بدأ يصّاعد من رأسه، وعينه تحاولان بنجاح الإفلات من محجريهما حتّى لم يعد موته، الذي أكّده طبيب شرعيّ، موضع شكّ.

ها قد تمّت العملية. بعد هذا المحكوم المحترق الأوّل، ما عادت الآثار المؤسفة للتّيّار المتناوب على الإنسان تثير الجدل. لم يكن توماس إديسون مستاءً. أن يحسّ كلّ

من شاهد نهاية كيملر بالرّعب أمام ذلك المشهد يخدم
مصلحته تماماً، فمثل ذلك النّظام صار منذ ذلك الحين
مرتبطاً باسم وستنغهاوس. لتفهم سعادته ولا ننسَ أبداً
أنّ أجمل الاختراعات لها في الغالب حكايات جميلة. هكذا
مثلاً وُلد الكرسيّ الكهربائيّ: من برهان دعائيّ مضادّ.

ولكن مهما تدبّر إديسون أمره، فإن القوى بصدد تغيير موازينها في الحرب الكهربائية التي تضعه في مواجهة وستنغهاوس. فبعد أن فهم هذا الأخير تفوّق التيار المتناوب وسعى إلى إقناع مَنْ حوله، صار يحلم بأن يزوّده كامل القارة الأمريكية، فأجرى اتصالات، وكسب نفوذاً وحشد إلى جانبه داعمين. ولكي يُسنده ويواجه الحملة الضخمة لجنرال إلكتريك، انطلق غريغور في سلسلة من المحاضرات في الولايات المتحدة ثم في أوروبا.

في هذا التوجّه العام، وبعد أن بدّد - رغم الحاجب المقطّب فوق العين الحادة لمحاسبه - المساعدات المالية الأولى الآتية من ويسترن يونيون، بدأ في تشكيل خزانة ملابس، وقد صار حريصاً على أن يكون الرجل الأكثر

أناقة في الشارع الخامس. احتفظ ببذلاته السوداء مع تحسين تفصيلها، وتعويض قماشها الخشن بالفلائيّة أو بالغبردين، وأقمصته بالباتّشة والقصبيّ، وجمع تشكيلة من ربطات العنق وقفاّزاتٍ من جلود الجدي والأيل والخروف- التي ما لبثت غابتها الميكروبية أن فرضت عليه عادةً عدم استعمالها، وكذا مناديله الحريرية البيضاء الثلاثة، إلّا مرّة واحدة-، وتسّلع بدغل من العكاكيز من النوع النادر، ذات عُجَر منقوشة، وقايض في الختام قبعته الدّربي الوحيدة بعدد كبير من القبعات العالية ذات الحرير اللّماع، ومن المقرّنات⁽¹⁾ وقبعات بنّما⁽²⁾. إلّا أنه، رغم تلك الأناقة، لم يكن يلجأ أبداً إلى الحليّ، فُبغضه لتلك المجوهرات العديمة القيمة بلغ حدّاً أنّ ساعته لا تزدان أبداً بسلسلة، ولا ربطة عنقه بمشدّ، ولا أيّ إصبع من أصابعه بأبسط خاتم.

كان من المفروض طبعاً أن يروّج غريغور خلال محادثاته خاصّةً للمنظومة التي أعلاها وستنغهاوس وقد

(1) Chapeau-claque مقرّنة: قبعة ذات فرنين.

(2) Panama : قبعة خفيفة من قشّ ملوّن.

أولاه ثقته كاملة. ولكنه كان لا يريد أن يكتفي بتلك البيّنة وحدها بل كان يرغب أيضاً في التعريف بأفكاره الخاصة، ويغتنم المنبر الذي أُتيح له لتقديم عرض صغير.

أمام قاعة غارقة أوّل الأمر في ظلمة شاملة رغم ما يخترقها هنا وهناك من التهاعات هاربة، ظهر فجأة وسط هالة من الضوء الأبيض وكأنها انبجس من عدم في سترته الردنغوت السوداء المضغوطة، بوجهه الطويل الممتنع وقامته الفارعة التي زادت قُبعة التشريفات طولاً، وهو محاط في منبره بأدوات غريبة، وآلات لم يسبق أن رآها أحد- وشائع لولبيّة، مصابيح متوهّجة، لوالب مختلفة وخاصة عدد من الأنابيب الزجاجية من شتى الأشكال، مملوءة بغاز ذي ضغط واطئ.

بدا غريغور مُلغزاً ومسرّحياً، مقتصدّاً في إضاءاته وحركاته، مضيفاً إلى مواهبه الخطابيّة موهبة الممثل ولاعب الخفّة المقارب للساحر. ولما كان ينبغي إثبات أمان منظومة التناوب قبل كلّ شيء، فقد أمسك بيده اليسرى خيطاً قادمّاً من وشيعة يتنقّل فيها تيار ذو جهد عالٍ، وباليمنى تلقّف أنبوباً فإذا الأنبوب، أمام ذهول

الحاضرين، يضيء في الحال. وهكذا أقام الدليل على أنَّ الكهرباء، وهي تعبّر جسمه، لا تصيبه بمكروه. صحيح أنَّ غريغور، لإقامة تلك البيّنة، لجأ إلى تيار ذي تردد عالٍ لا يستطيع أن يدخل إلى الجسد ولكنه يتنقل في محيطه دون أدنى خطر؛ هي حيلة بسيطة إذن، خدعة بالغة الخفّة ولكن لا يهتم، ما دامت تؤمن اقتناع الجمهور وتأتي بنجاح مؤكّد. وبعد أن أجرى غريغور ذلك حسب تعليمات وستنغهاوس، جعل يأخذ بعض المبادرات. لم يكتفِ بالإشادة بالتيار المتناوب وانعدام ضرره، دون إعلام عمّوله، إذ سرعان ما بدأ يبسط أيضاً كلّ أفكاره. وفي طليعتها تصميم جديد، غير معروف تحت سماواتنا، اكتشاف غير مُدرّج في البرنامج: تصميم طاقة حرّة، متفّسية وحركيّة يزعم غريغور أنها موجودة في كلّ نقطة من الكون، ولا يبقى سوى استثمارها. ليست سوى مسألة وقت، جرؤ غريغور على القول في غير حذر: لن تتأخّر الإنسانية، هتف قائلاً، في خلق اتّساق بين التّقنيات المتعلّقة بالطاقة والدّواليب الكبرى للطّبيعة. عندما علّم وستنغهاوس من أعوانه المذهولين، المدسوسين احتياطاً وسط الجمهور،

غَضَّ الطَّرْفُ فِي تَسَامَحٍ.

بِفَضْلِ حُضُورِهِ الْمَسْرُوحِيِّ، وَطَرِيقَتِهِ فِي تَخْيِيرِ الْعِبَارَةِ
الصَّائِبَةِ، وَالْمُبَاغَةِ، وَالتَّشْوِيقِ، وَتَلَاعِبِهِ وَمَهَارَتِهِ الْيَدَوِيَّةِ
كِبْرَهَانٍ، لَاقَى غَرِيفُورُ فِي مُحَاضَرَاتِهِ النِّجَاحَ فِي الْحَالِ، إِذْ
كَانَ مَحَلَّ تَغْطِيَةٍ صَحَافِيَّةٍ مَذْهَلَةٍ، وَتَنَاقُلِ أَخْبَارٍ مَسْعُورٍ
أَحْدَثَا إِقْبَالًا مُتَزَايِدًا كُلَّ يَوْمٍ. وَسَرْعَانِ مَا صَارَ مَوْضُوعَ
الْحَدِيثِ الْوَحِيدِ فِي مَادِبِ الْعِشَاءِ الرَّاقِيَةِ حَتَّى أَنَّ غَرِيفُورَ
بِيسَاطَةٍ - انْظُرُوا كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَسِيرَ الْأُمُورُ بِسَرْعَةٍ! -،
أَضْحَى خِلَالَ بَضْعَةِ شُهُورٍ أَشْهَرَ عَالَمٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.
بِأَفْصَى سَرْعَةٍ، جَعَلَ النَّاسَ يَتَخَاطَفُونَهُ. وَتَهَاوَلَتْ
عَلَيْهِ فَجَاءَةُ التَّشْرِيفَاتِ وَالْأُوسَمَةِ. وَنَشَدَتْ الْحُكُومَاتُ
الْأَجْنِبِيَّةُ خِدْمَاتِهِ. سَمَّوْهُ سَاحِرًا، وَصَاحِبَ رُؤْيَا، وَنَبِيًّا،
وَعَبْقَرِيًّا مِغْطَاءً، وَنَعْتَوْهُ بِأَكْبَرِ مُخْتَرَعٍ فِي كُلِّ الْأَزْمَانِ. صَارَ
الْمَجْتَمَعُ الرَّاقِي فِي نِيُورُوكَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ، مِنْ صَنَاعِيِّينَ
وَرِجَالِ مَالٍ، وَمُدِيرِي جَرَائِدٍ، وَأَعْضَاءِ مَجَالِسِ جَامِعَاتٍ،
وَكُتَّابٍ، وَمُمَثِّلِينَ، وَمُوسِيقِيِّينَ، وَشُعْرَاءَ، وَنَحَّاتِينَ،
وَمَتَعَاطِي السِّيَاسَةِ، وَرُؤَسَاءَ، وَمُلُوكَ، وَكُلَّ مَا نَرِيدُ.
جَعَلَ يَقْبَلُ بِالذَّعْوَاتِ لَدَى الْأَثْرِيَاءِ، وَالْأَثْرِيَاءِ جَدًّا،

وواسعي الثراء، إلا أنه غالباً ما كان يرفضها. الأثرياء من عاداتهم تنظيم مآدب تسمى الواحدة منها عشاء فضة، عشاء ذهب أو ألماس أو بلاتين. والفرق البسيط بينها يقوم على المادة التي صُنعت منها جوهرة تجدها كل سيّدة أثناء تلك الليلة وهي تجلس إلى المائدة، مصرورة تحت منديلها المنشّى. غريغور حضر مرّة أو اثنتين هذه المآدب ولكن نفوره من المجوهرات كان من الشدّة ما جعله يمتنع سريعاً عن العودة إليها. الأثرياء جداً يفعلون الشيء نفسه تقريباً، إلا أنه، في سهراتهم، لا يُسمح إلا بتدخين السجائر الملفوفة في أوراق من فئة مائة دولار، وغريغور، بصراحة، لا يرى ما المصلحة في ذلك. واسعو الثراء، وهم الأكثر جنوناً، يُقيمون سهرات غريبة حيث يُستحسن مثلاً أن يأتي كلّ بليونير غير حليق ولا مُسرح الشعر في أسمال قدرة قدر الإمكان، فيجلس على أرض وسخة، ويحتسي جعة تالفة وهو يتلذذ بأكل الفضلات: قشور الخبز، جلود الطرائد المتوفّة، سقط البقول يُقدّمها في أطباق من الكريستال خادم بشعر مستعار وحُلّة خدم. قد يكون غريغور، رغم أنه لم يُظهر شيئاً، وجد ذلك مسلياً

لمدة خمس دقائق، ولكنه ما لبث أن أحجم عنه.

وبالرغم من أن المشاهير الذين خالطهم غريغور، وليس أقلهم روديارد كيبلنج⁽¹⁾ مثلاً، ومارك توين⁽²⁾ أو إينياس بادريفسكي⁽³⁾، كان يمكن أن يالفهم لو شاء، فإنه لا ينساق أبداً إلى الانتشاء بهيتهم إذ يبقى على مسافة منهم، دوماً، ويحرص على ألا يرتبط بهم كثيراً. وعلى أية حال فهو لا يحتاج إلى فائض جهد: فتلك هي طبيعته الجافية العديمة الابتسام. لا يوجد غير زوجين يلقيان لديه حظوة، هذا إن أمكن أن يكون كذلك، وسيصبح لهما صديقاً حميماً: نورمان أكسيلرود، الذي ينشط كمُحسنٍ إلى الإنسانية⁽⁴⁾، وزوجته إيتيل.

بما أن المرحلة كانت عند بداية ظهور السينما، حيث ظهرت، وهذه ظاهرة مجهولة حتى ذلك التاريخ، نجومها الأولى، فلنستغلها في وصف آل أكسيلرود ولو سطحياً.

(1) Rudyard Kipling (1865-1936) كاتب وشاعر وقاص بريطاني.

(2) Mark Twain (1835-1910) كاتب أمريكي ساخر.

(3) Ignace Paderewski (1860-1941) عازف بيانو وملحن ورجل سياسي ودبلوماسي بولندي.

(4) مُحسن إلى الإنسانية أو محب للبشر philanthrope : شخص يرمي الآخرين ويشجع العلوم والآداب وسواها ويعني بتحسين الوضع الإنساني.

يذكر نورمان بليونيل باريمور⁽¹⁾، فهو طويل ولو أنه مرن، جاف ولكنه باسم. أما إيتيل فهي صموث وحالة، لها شيء من بيرل وايت⁽²⁾ في نظرتها، وفي بسمتها مزيج من الأختين غيش، ليليان ودوروثي. عندما يلتقي بهما غريغور، كان ذلك يتم دائماً أو يكاد في حضور المساعد المبتدئ لأكسيلرود، الشاب أنغوس نير- الذي يذكر بقامته القصيرة ووجهه الفزع ببعض ملامح إيشكا كوك الذي بدأ مسيرته بعد ذلك بمدة. أنغوس نير يقوم لدى نورمان مقام السكرتير والسائق ومدير شؤون البيت، ورغم ذلك يطيعه بالنظرة والإشارة، كما يبدو أن عينيه لا تفارقان إيتيل، التي ربما كانت أصابعه أيضاً تحلم بها.

لم يتردد غريغور في القدوم لتناول العشاء لدى آل أكسيلرود، ثم صار يأتي بانتظام مرة في الأسبوع ثم مرتين، الثلاثاء والجمعة. أيام الثلاثاء للشؤون الخاصة، بثلاثة

(1) Lionel Barrymore (1878-1954) ممثل ومخرج وكاتب سيناريو أمريكي.

(2) Pearl White (1889-1938) و Lillian Gish (1893-1993) وأختها الصغرى Dorothy Gish (1898-1968) هن ممثلات أمريكيات برزن أول ظهور السينما، إلى جانب الممثل Elisha Cook (1903-1995).

أشخاص أو أربعة، بحسب حضور أنغوس نير أو عدمه،
 أما أيام الجمعة فكانت أكثر مدنيّة ووفرة، تجمع شريحة
 متغيّرة ومنتخبة من المعجبين بغريغور. هؤلاء المعجبون
 هم إذن ذوو أساليب ومن مهن شديدة الاختلاف
 ويُتقّون، كما أسلفنا، من الأوساط الفتيّة والعلميّة أو
 المهتمة بالسياسة، ولكنّ المخترع أصبح أيضاً موضع عبادة
 شخصيّة لدى عدد من المتزهدين وأتباع بعض المذاهب
 الإشرافيّة. بل إنّه صار محلّ اهتمام دعاة الإخفائيّة⁽¹⁾،
 ومن ثمّ بدأ أناس غريبو الأطوار يتزاحمون حوله، معلّنين
 أنّه المعشوق الزّهريّ⁽²⁾، آتٍ من كوكب بعيد وصل إلى
 الأرض في مركبة فضائيّة - وفي رواية أخرى، على جناحي
 حمامة بيضاء كبيرة.

هذا يسلي غريغور، ونظراً لعطفه الأثير على الطيور
 وخاصّة على أكالات الحبوب، ربّما لم يكن ذلك يسوّؤه -
 دون أن ينطق بكلمة بطبيعة الحال. إلّا أنّ مثل هذه
 الأعمال، في الوسط العلميّ، غير مقبولة. فالأسنان تكثر

(1) Occultisme: مذهب يؤمن بالقوى الخفيّة وبإمكان إخضاعها للسيطرة
 البشريّة.

(2) نسبة إلى كوكب الزهرة.

من جهة الشركات العلميّة. ما ولد وجهاً آخر للمسألة،
وجهها السّيئ والمقابل الكلاسيكيّ للتجاح: بدؤوا ينعنون
غريغور بالدّجال والتّصاب. وجعلوا يعيرونه بالمشعوذ
بشكل سريع ومتعمّد لا سيّما أنّه كان يحبّ الظّهور كثيراً،
والحصول على موقع شخصيّة عامّة، والتّباهي والتّبجح
في الصّحف، وهي خطيئة لا يستسيغها زملاؤه من العلماء
ولا يغفرونها له.

وهذا لم يمنع اندفاعه وحماسة من الاستحواذ على
الجماهير، المنذهلة بمواهبه الإخراجيّة وكلّ تلك الأدوات
المكتملة ومنها الأنابيب الغريبة التي يحيط بها نفسه، والتي
صارت علامته المميّزة ويهمل دائماً تسجيل براءة اختراعها
أو تسويقها. هو مخطئ، يا للخسارة، كان عليه أن يسجلها -
لأنّ ضربة أخرى قاسية سوف تأتي: لن نكتشف إلّا بعد
خمسین سنة أنّ تلك الأدوات هي منشأ الأنابيب اللاّصفة
العصريّة، التي سوف تُوسم بهذه التسمية الموفّقة: الثیون.
من جهته، كان وستنغهاوس، الغارق في الصّراع الذي
يضع التيارين المتناوب والمتواصل وجهاً لوجه والذي
يبدو أنّه كان بصدد كسبه، يواصل غضّ النظر عن تلك

التجاوزات، مبتهجاً برؤية منظومته مُختار لإضاءة المعرض العالمي بشيكاغو، الذي سيتواصل على مدى خمسة أشهر للاحتفال بمرور أربعة قرون على وطء قدم كريستوف كولومب أرض أمريكا.

هذا المعرض، الذي حظي بشغف كبير، لن يكون أيضاً سوى بداية. فبعد أن عرف وستنهاوس كيف يقنع في أعلى مستوى أنّ بالإمكان نقل الكهرباء على مسافات بعيدة، وهي نقطة ضعف إديسون بشكل لا رجوع فيه، تمّ اختياره لتزويد مدينة بوفالو بالطاقة الكهربائية في البداية. إثر توقيع عقد إنشاء كامل البنية التحتية للتّيار المتناوب، شرعَ في بناء محطّات التّوليد الكهربائي الجديدة. وأوّل تلك المصانع الكهربومائية⁽¹⁾ الواقعة على مسافة أربعين كيلومتراً، سوف تُبنى حيثما شاء غريغور وحلم وتخيّل أو توقع في شبابه: عند شلالات نياغارا.

(1) Hydroélectrique: محطة لتوليد الكهرباء من الطّاقة المائية.

في معرض شيكاغو، كان غريغور لا يزال يحتل موقع
النجم وهو ينسط عرضه الجديد.

الشاربان صقيلان محفوفان بالمليّمتري، والشفتان
مضمومتان في شكل خيط، والشعر أسود مائل إلى الزُرقة
مفروق في الوسط متيحاً بروز جبين بالغ العرض، اعتلى
قائماً بصلابة منصّة عالية في قاعة تغصّ بحضور غفير،
وترقّب طويلاً أن يسود صمتٌ شامل وهو يرمق الجمع
بنظرة صارمة - مع أنّ الأمر كان تمثيلاً محضاً، إذ كان في
الواقع مشغولاً بعدّ الجمهور في أدقّ مقعد إضافي.

طيفه المديد الشبيه بطائرٍ مائيّ ذي ذنبٍ عقعقيّ أسود،
بربطة عنق بيضاء وحذاء مُبرنّق - له نعل سميكة مدعّمة
بفِلين عازل تجعله، مع القبّعة العالية، يتجاوز المترين

بسهولة-، يرتسم أوّل الأمر في ظلّ المسرح، قبل أن تُظهر
الأضواء الكاشفة شيئاً فشيئاً عدداً وافراً من الأجهزة
ذات التردّد العالي. يحتوي الضّوء الخافت بكوّة في الجدار
على لافتات تضيئها أنابيبه المعهودة، ولوالب ومصابيح
أخرى لاصفة تروح أضواؤها ونحيء كالأنفاس. وهنا
وهناك يُومض من الدواليب المستنّة برق. أدوات نحاسيّة
صغيرة، كروية أو بيضاوية، تدور وحدها بسرعة فائقة
على مناضد مغطّاة بالمُخمل وتغيّر اتّجاه دورانها بانتظام.
زاد غريغور في إطالة السّكون، بعد أن خيّم على المكان، ثمّ
بدأ يعرض سلسلة متسارعة من الأعاجيب الكهربائيّة.

بدفع منه وعن بُعد، وكأنّها هو خاضع لمرور مغناطيسيّ،
مالبت أن نشّ الشرر من كلّ جانب، قاذفاً ومضاتٍ باهرةً
تنتشر بالتداول عبر الهواء في كلّ الاتّجاهات التي تُطلقها
ذراعا غريغور الطويلتان، الممدودتان بأصابع طويلة من
بينها إبهامان لا ينتهيان، نحو مصابيح تشع في اللّمعان
باهتياج.

والجمهور لم يفهم، كحالي أنا، كلّ تلك الأشياء
العلميّة، فقد فتح عينيه على اتّساعها، وفغر فاه أمام

ذلك المشهد، ولكن عندما جعل غريغور، في فرقة مدوّية، يُجري بين يديه تيارات تتجاوز مائتي ألف فولت، متذبذبة مليون مرّة في الثانية وتجلّى ذلك بموجات وميض فسفورية مُبهرة، هذا إن لم يتحوّل هو نفسه إلى طوفان من النار، صارت القاعة كلّها تصرخ حتّى انتهاء الظاهرة. بعد ذلك، وسط السكون الذي عاد تدريجيّاً، واصل جسد غريغور الثابت وثيابه لبرهة إصدار ذبذبات وهالات ضوء، كانت تخفت ببطء إلى أن أطبق الظلام من جديد، وسط صمت ديباس⁽¹⁾ لا يُعكّره حتّى نفس الجمهور المقطوع. ولما أُنيرت الأضواء في القاعة بشكل عنيف، جعل الناس ينظر بعضهم في عيون بعض، دون أن يجرؤوا على التصفيق، قبل أن يلاحظوا أنّ غريغور وتوابعه اختفوا في لحظة من المسرح الذي صار مثل علبة حلّي مطلية باللّك⁽²⁾، نظيفة لا تشوبها شائبة، فارغة - كمرآة تعكس إلى العالم ذهوله.

وما إن انقشع الذّهول حتّى نهض الناس في فوضى

(1) Crypte: فوحت كنيسة.

(2) Laque: عصارة صمغية تفرزها بعض الأشجار وتُصبغ بها الجلود والخشب.

وانتهجوا نحو باب الخروج، الرجال يعتمرون قبعاتهم
حالمين، والنساء يعدّلن بالكّية أشرطتهنّ ودنتلاتهنّ بأطراف
أظفارهنّ إلى أن اختفى الجميع، قبل أن يشرع قيمو البيت
والعاملات في ذرع الممرّات، لكنس الأرضيّة وتقليب
الطرّف نحو الأشياء المنسيّة، دبايس شعر ساقطة، مراوح
ضائعة، ومنشورات دعايّة مرميّة. انصرف الحضور كلّ
ولم تبق غير إيتيل أكسيلرود، جالسة في الصّفّ الأوّل من
المقاعد، كأنها منغمسة في أفكارها، وكانت يومها ببساطة
في تنورة مدوّرة وصدارة ذات كُمين مجعدين بلون وردّي
يمتدّ حتّى ياقة الضّباط التي تسجن جيدها، وكعادتها
دون أيّ سوار أو قلادة أو مشبك صدر أو خاتم عدا خاتم
زواجها. لم تقرّر النهوض من مقعدها إلّا إثر برهة، بعد أن
توارى غريغور متّجهاً نحو الكواليس لفترة، نحو شعور
متزايد بعظمته، نحو أوّل مغسل صادفه ليغسل فيه يديه.

عندما غادرت إيتيل أكسيلرود القاعة، لم تتّجه إلى جناح
النساء حيث تزدحم صديقاتها من المجتمع النيويوركي
الراقى اللّاتي قدمن إلى شيكاغو، وحيث يُعرض، من أوّل
ماكنة لغسل الأواني إلى ستّاب الأثواب الحديث، كلّ

ما يَعد بتسهيل حياتهنّ. وإذ رأت، قرب طريق فيريس، زوجها برفقة الشاب أنغوس نير، أثرت عدم الالتحاق بهما أيضاً، واتجهت إلى نوافير الماء المضيفة التي صُممت خصيصاً للمعرض. وإذا كان نورمان أليكسرود منهما كماً في حديثه مع سكرتيره، لم يتبّه إلى الحضور البعيد لزوجته، أمّا الشاب نير فقد رآها.

لنتوقف قليلاً عند الشاب أنغوس نير. هو فتى ذو قامّة قصيرة ومظهر فزع رغم أنّه خطير، مُراءٍ رغم أنّ براءة شاردة في نظرته، ساذجة وعنيدة مثل نظرة ملاك، تُنافس ذلك الملمح المراوغ وتعطي انطباعاً عن طفل مجنون إلى حدّ ما، قادر على أن يُعذّب شخصاً حتّى الموت وهو يضّمّه إلى صدره باكياً، ويحبّوه حبّه وحياته وسط حصّتين من التعذيب بالحديد المحمّى - مقلّداً بذلك، بشكل استباقيّ، ملامح الممثل إليشا كوك جونيور⁽¹⁾ الذي ولد في سان فرانسيسكو بعد عشرة أعوام، مثل ريشارد ويدمارك ذات 26 ديسمبر، قبل أن يكبر هنا بالذات، في شيكاغو،

(1) عُرف الممثل الأمريكي إليشا كوك جونيور أو الصّغير Elisha Cook Jr. بوجهه الصّارم التعابير الذي يزيد من برودته لون عينيه الأزرق الشّديد الوضوح وغياب الابتسامة على محبّاه.

ويستعرض مواهبه في هوليود كممثل من الدرجة الثانية.
كان أنغوس نير يكنّ لإيتيل، لنقرّ بذلك، شغفاً بغير
أمل، وتوصل إلى أن يكون أساسياً لا غنى لنورمان عنه،
مؤدياً وظيفته كسكرتير على أفضل وجه لكي يستطيع
البقاء بعيداً أقلّ بُعدٍ ممكن عن زوجة المعلم. أمّا هي،
فرغم لطفها وأفكارها المتقدمة، فلا ترى فيه سوى شكلٍ
يكاد يكون مُحسّناً من الخادم. ولكنّ عندما لاحظ الشاب
نير بحدة إدراك الاهتمام الذي توليه إيتيل خفيةً لغريغور،
استقرّ في روحه حقّدٌ مطلقٌ تجاهه. وحينما لمحها تبتعد نحو
نوافير الماء، لم يأتِ على ذكر ذلك الأمر.

في تلك الأثناء، كان غريغور ينشّف يديه بمنشفة صالحة لاستعمال وحيد أخرجها للتوّ من حقيبتة، ويعدّد لنفسه مشاريع أخرى لافتة تقوم على الكهرباء.

ينبغي مثلاً، وهو عزم قديم، أن يلتف ذات يوم في لحاف من نار باردة يمكن، حسب تصوّره، أن تدفئ رجلاً عارياً في القطب الشمالي، وسوف يخرج منها ليس فقط سالماً بل أحسن حالاً: ذهن متعش، أعضاء مُحسّنة، بشرة مُجدّدة. من زاوية طبيّة أيضاً سوف يجدر كذلك ضبط فكرته في التخدير داخل المستشفيات بفولتيّة⁽¹⁾ قويّة. سيكون من المستحسن أيضاً ردم كبلات عالية الجهد تحت المدراس لتحفيز التلاميذ الخاملين، وفي المسارح، تهيئة

(1) Voltage: القوّة المحركة الكهربائية مقيسة بالفولتات.

قاعات بكسوة كهربائية لوضع الممثلين في ظروف حسنة والقضاء نهائياً على ظاهرة رهبة المسرح التي تُربك البعض منهم أثناء الأداء. لا بدّ من الاهتمام بكلّ ذلك.

ولكنّ ليست تلك سوى جزئيات، نزر ضئيل بالقياس إلى تصميمه الجديد الأكثر فخامة، والمتمثل في إقامة إنارة ليلية أرضية. وفي هذا الشأن يكفي إرسال دفقات ذات ذبذبات مرتفعة إلى حدّ ما في الجوّ العالي حيث يخيّم فراغ جزئيّ، وحيث للغازات نفس طبيعة مثيلاتها الموجودة داخل بعض المصابيح التي صمّمها غريغور. علاوة على أنّه بالإمكان بهذه الكيفيّة إنارة المدن دون اللّجوء إلى حاملات المصابيح والفوانيس الكلاسيكيّة، المكلفة وغير الأنيقة في الوقت نفسه. يمكن أيضاً إدخال تحسين كبير على أمن حركة النّقل برّاً وبحراً وجوّاً.

في العادة، نادراً ما ييوح لأحد بمثل هذه المشاريع، باستثناء بعض الأخصائيّين الدّوليين الذين يزورونه. ولكنّ عندما سأله هؤلاء كيف سيقود تلك الدّفقات في مثل ذلك الارتفاع: سهل جدّاً، قال وهو يهزّ كتفيه دون أن يُضيف شيئاً. وتلك نفس المشكلة معه دائماً، إذ لا نعرف

أبدأ على وجه الدقة هل أنّ ذلك ممكن أم هو من سبيل الحلم إن لم يكن خدعة. وبما أنّ مبدأه الأساس هو ألا يكشف عن مناهجه بل اختبارها في وضعيّة حقيقيّة، فقد لا ندرك أبدأ ما إذا كان فعلاً يريد تطوير كلّ تلك الأشياء أم أنّه يتحایل. في انتظار ذلك، وفي غياب المال، تبقى تلك الأفكار في طور أفكار.

للحظة الراهنة، بعد أن قلم غريغور أظفاره إلى أدنى حدّ، وغسل يديه مرّة ثانية لتبديد الهباءات التي تجمّعت تحت أظفاره، راح يملّس شعره أمام المرأة قبل التوجّه إلى المحطة ليلحق بالقطار السريع شيكاغو-نيويورك. سوف يعيد التفكير في كلّ ذلك داخل القطار ويعود إلى فندقه وقت العشاء.

عماً قريب، لن يكون المال هو ما يُعوزُه.

بعد سبع سنوات، أصبح غريغور ثرياً، وبالأحرى ثرياً افتراضياً، فموقعه وهيبته في ويسترن يونيون كانا يسمحان له بأن يعيش بالتدائن عيشة مرفهة جداً. كان له من الثراء ما مكّنه من الإقامة في والدورف أستوريا، أفخم فندق في نيويورك وبالتّالي في العالم، حيث يشغل على مدار العام جناحاً واسعاً لرجل أعزب. وكان غالباً ما يتناول عشاءه وحيداً في ساعة محدّدة ودون أن يفحص قائمة الأطعمة، إذ هو يشكّل الوجبة بنفسه قبل أن يوصي بإعدادها عن طريق الهاتف ثم ينزل بعد ساعة بالضبط إلى قاعة التّخيل - المطعم الأفخم في الفندق الأفخم - حيث يجلس في ركن مولياً ظهره خشية المضايقة، ولا يقدّم له

الطَّعامَ رئيسُ صفٍّ^(١)، إذ اشترط منذ مدّة ألا يعتني به سوى مدير النُّدُل.

نحن في شهر نوفمبر ولا بدّ أن يتناول العشاء هذه المرّة قبل الموعد المعتاد، ذلك أنّ وستنغهاوس أعلن عن زيارته إلى والدورف في أوّل المساء. هذا التّغيير الطّفيف في التّوقيت مزعج في نظر غريغور رجل النّظام والعادة، ولكنّ اعترافاً منه بالجميل أو بدافع المصلحة، لا يجدر به أن يناقش قرارات المفاوض.

عندما ينزل غريغور إلى القاعة، ثَمّة واحد وعشرون منديلاً خالياً من أيّ شائبة، مكدّسة مسبقاً على المائدة التي أُسندت إليه. قد تسألون، لم كلّ هذ العدد من المناديل لرجل واحد؛ ذلك أنّ وسواس الميكروبات بلغ به حدّاً جعله، قبل الأكل، ينظّف بنفسه بعنايةٍ لوازمَ مائدته، وصحونها، وكؤوسها، حتّى وإنّ كان كريستال القاعة أشدّ لمعاناً من الأواني الفضيّة. ولماذا واحد وعشرون تحديداً، قد تُلحّون في السؤال: سبق أن قلنا لكم ذلك،

(١) Chef de rang: رئيس الصّف، بلغة المطاعم، هو المسؤول على مجموعة من الموائد، تسمّى صفّاً.

لأنه يقبل القسمة على ثلاثة. فهو إذن ملائم تماماً، في مثل ملائمة عنوان مختبره تقريباً، 33 الشارع الثالث عشر.

يصقل إذن تلك الأواني واحداً واحداً، وبعد أن يُنظفها، دون أن تحتاج إلى ذلك، يحمّ مدير التُّدُل بإيماة موجزة على تقديم العشاء. ولكن، بعد أن يُقدّمه له، لا يمكن أن يشرع في الأكل ما لم يُقدّر أولاً - بطريقة منهجية وإن كانت فورية بحكم العادة - حجم كلّ طبق بالضبط، ثمّ محتوى كلّ كأس، وحمولة كلّ شوكة، وكلّ ملعقة بالتحديد. حسابات ضرورية لأنه لا يحسّ بالجوع من دونها، بل إنها هي التي تسمح له في الواقع بتغذية نفسه. فالأكل، باستثناء ذلك ومن دونه، لا يرغب فيه غريغور كثيراً.

وتقدير تلك الأحجام ليس كلّ ما في الأمر إذ ينبغي أيضاً حساب لُقَم الشوكة مثلما اعتاد على أية حال، ويشكل متزايد، أن يُعَدّ كلّ شيء - لم تهدأ الأمور في هذا المجال. عدد خطواته بين الفندق والمختبر، كمّية المباني، والعربات، والرّجال، والنساء، والحمام - الحمام خصوصاً - الذي يصادفه في مساره ذاك. لم يكن السّلم

الآلي قد اخترع بعدُ في تلك الفترة، ولكن حتى لو وُجد، فإن غريغور سوف يحسب درجاته، رغم كونها مهمة لا نفع من ورائها. وإن لم يتم بحساب أنفاسه فليس لأنه لم يفكر في ذلك، فهذا أمرٌ مُغرٍ - ولا يدري بالضبط هل يلوم نفسه على ذلك أم هو مرتاح إذ عدل عنه، يتراوح شعوره حسب الأيام. إنه نصيب من الوقت المربوح، على أية حال، لأن حساب كل شيء باستمرار يشغل المرء طويلاً. الغريب، وهذا أيضاً سبق أن قلناه لكم، أن غريغور لا يتتهج الأسلوب نفسه مع المال. هو ثري وكلنا نعلم أننا في الغالب كلما كان لنا مال أكثر حسبنا أكثر. كان بإمكانه أن يكون أكثر ثراءً، ولكن يبدو أنه لا يولي ذلك كبير اهتمام، فهو مرتاح لنمط عيشه دون أن يُبدى رغبة في تحسينه. بخلاف الوقت، إذ هو يعدّه طبعاً دون تراخ منذ ما يقارب خمسين عاماً. ولكن إذا كان ينظر إلى ساعته كل ثلاث وثلاثين دقيقة، فليس إلا للتثبت: يعلم دوماً الزمن الذي هو فيه بالتحديد، في كل لحظة، فهو يملك ساعة مطلقة مثلما يملك آخرون الأذن. وإن فحصها منذ حين فلاّته سوف يلتقي بعد العشاء، هذه الليلة في جناحه، بجورج

وستنغهاوس- الذي توحى نبرة رسالته التي حدّد فيها هذا الموعد بأنّ له أسباباً وجيهة وراء رغبة الحديث إليه.

السّاعة قربت، غادر غريغور مائدته، عبّر البهو حتّى المصعد الذي يكره استعماله، ولكنّ ما باليد حيلة، فنيويورك عموديّة، ثمّ لمس صبيّ المصعد طربوشه معلناً عن الطّابق الحادي والعشرين. أخرج غريغور مفتاحه من جيبه قبل أن يدخل سكنه، جناح غير ضخم ولكنّ لا يهتم ما دام في والدورف، وحسنٌ للغاية رغم كلّ شيء. دعنا من السّتائر والبُسط الجداريّة واللّوحات الفنّيّة على الجدار والتّحف، هي في الواقع غرفة نوم واسعة يتقدّمها صالون تشغل مساحته المتوسّطة ثلاث أرائك ومنضدة كتابة بأسطوانة وخزانة صغيرة. وما كاد يجري بعض ترتيب- ولو أنّ كلّ شيء لدى غريغور مرّتب- حتّى سمع طرفتين جافّتين على الباب، فذهب يفتحه.

بدا السيّد وستنغهاوس مُحرجاً قليلاً، متضايقاً، غير مرتاح، حتّى بعد أن عرض عليه غريغور أفضل أريكة، ثمّ سيجاراً، ثمّ هل يريد أن يشرب قدحاً من شيء ما- قوارير ويسكي، بوربون، كونيّك، براندي قائمة على

صينية مخصصة للزّوار. وهو جالس، قبل وستنغهاوس
 بسيجارٍ وقدرٍ ولكن، وكأنها ربحاً للوقت، ودون أن
 يولّع ذاك أو يرفع هذا إلى شفّتيه، أبدى بعض الثناء على
 سكن غريغور، ولو برتابة وآليّة، قل لي، جميل سكنك،
 أنا مسرور بأن إقامتك على ما يرام. إلّا أنّه فيما يبدو يجهد
 في إيجاد كلماته. أخيراً وجدها ولكنّ الكلمات كانت
 تتوالى بصعوبة، تنقطع أحياناً منذ المقطع الأوّل، وأحياناً
 بالعكس تتدافع فيما بينها، وأحياناً تستغرق وقتاً عجبياً
 قبل أن يتنازل بعضها لبعض عن حقّ الصّدارة. كلّ
 ذلك تقطعه نحنحة طويلة ونخير جافّ. في حقيقة الأمر،
 باختصار، هذا ما حدث.

لمناسبة تحيين بعض الملفّات، وقع مصرفيو وستنغهاوس
 على عقد موقّع مع غريغور قبل خمس عشرة سنة خلت،
 وقد تناساه الجميع في غمرة الفرح بالشؤون التي ما فتئت
 تزدهر. وفق هذا العقد، ولا نتذكّره إلّا لماماً، يحقّ لغريغور
 أن يقبض دولارين ونصف الدّولار عن كلّ حصان
 بخاريّ يباع، مبلغ رمزيّ لم يكن يثير وقتها أيّ مشكل.
 غير أنّ الأمور سارت بشكل أفضل بكثير ممّا كان يُتصوّر

عند الانطلاق: فخلال الأعوام الخمسة الأخيرة، بيعت من تلك الأحصنة البخارية كمّيات خيالية غير متوقّعة، إلى درجة أنّ المصرفيّين حسبوا، مرّوعين، الحقوق المتراكمة، التي لم تدفع حتّى تلك اللحظة لغريغور: كانت تتجاوز اثني عشر مليون دولار. إذا دُفعت تلك الحقوق، وهو ما يمكن أن يُطالب به غريغور، فسوف يصبح من أثرى الرّجال في العالم ولكنّ هذا يمثل ثقلًا لا طاقة لويسترن يونيون على تحمّله. ومن ثمّ نصّح أولئك المصرفيّون بحميّة بالتخلّص من ذلك العقد ولكنّ وستنغهاوس، المحرّج، لا يمكنه السماح لنفسه بطبيعة الحال بفسخ العقد من جانب واحد. هذا لا يُعقل، هناك قوانين. هناك قضاة، هناك محاكم وعقوبات. وهناك خاصّة غرامات يمكن أن تزيد في إثقال كاهل المؤسّسة.

هكذا شرح الوضع لغريغور الذي استمع إليه برصانة حتّى النهاية، دونما كلمة. ثمّ نهض واتّجه نحو الخزانة وهي من النوع البسيط، دون قفل ولا تركيبة سرّيّة، لا شيفرة ولا رموز ولا أيّ شيء، وهي إلى ذلك مفتوحة على الدّوام. أخرج منها العقد ثمّ قرأه سريعاً وهو مُؤلّ ظهره

قبل أن يلتفت إلى المِقاوِل. سيّدي وستنغهاوس، قال له،
أنت الوحيد الذي آمن بي. ساندتني، ساعدتني، ورضيتَ
أن تمنحني صداقتك. كلّ ما أطلبه منك الآن هو أن تسعى
جهدك كي يغنم العالم كلّهُ تيّاري المتناوب. أمّا الباقي، فلا
داعي للحديث عنه.

وبعد أن صرّح غريغور بذلك، مزّق العقد رسمياً. أي
أنّ الضربات السيئة، أحياناً، هو الذي يتسبّب فيها. كأساً
أخرى؟

تمّ الاتفاق على تدبير يقضي بأن تصرف وكالة ويسترن يونيون لغريغور مبلغاً اتفاقياً مقداره مائة وثمانية وتسعون ألف دولار لشراء كلّ حقوقه. مبلغ هزيل قياساً بما يستحقّ قانوناً ولكن كأنه لم ينتبه. لما كان سيئ الطّبع وواثقاً من نفسه إلى ذلك الحدّ، ومسكوناً بفكرة عن شخصه لا يدانيها في العلوّ سوى احتقاره للآخرين، كان متوقعاً أن يفاوض بصلابة على استحقاقاته، ولكن لا، يبدو أنّه لم يستخلص عواقب تقديره لذاته في الحياة المادّية. لا ريب أنّه كان يعرف ما يصنع، بطبيعة الحال، يعرف بالتأكيد: هو أوّل من طوّر استعمال الكهرباء فيما وراء تطبيقاتها الحراريّة والمضيئة. هو رائد ما سوف نسمّيه في يوم ما الكلّ الكهربائيّ. بصفته تلك، كان يمكن أن يغتنم

ابتكاراته بصورة أفضل، أن يطلب على الأقل نسبة مئوية طفيفة. تقاسم الأرباح مثلاً، ولو في شكل ريع صغير وحتى مجرد زيادة، لست أدري. ولكن لا، فقد قنع بذلك. لكن لم يكن يلهث وراء المال، فربما لأنه يريد فقط ألا يجد لزوماً للتفكير فيه. حسبُه أن يعيش في والدورف، في نسقٍ عالٍ - بالتدوين دوماً نظراً لمكانته - وخاصة أن يتمتع بحريّة تامّة في مختبره. وربما أيضاً أنه لا يجد الوقت لذلك. ففي الأعوام العشرة التي تلت، خطرت بباله مجتمعة أفكارٌ عديدة، عديدة حقاً. ولكنّ عاداته الغربية بتصميم أشياء باستمرار وفي نسق سريع يعارض فكرة أن يقف على أحدها ويُطيل. عدد مفرط من التّصورات المستقبلية يزدحم في ذهنه دون تنظيم، وبوفرة تمنعه من أن يعمّقها واحداً واحداً، ويطوّر تطبيقاتها العملية ويستغلّ قيمتها التجارية. ليس لكونه لا يعي تلك القيمة، بالعكس، وإنما لأنه لا يجد متسعاً من الوقت. لا يجد الوقت إلاّ لتسجيل البراءات ثمّ إعلام الصحافة بشكل مشير، كما يهوى دائماً، قبل أن يلتفت إلى ناحية أخرى.

ذلك أن غريغور ربّما لا يخترع أشياء ملموسة ولكنه،

في نطاق الاكتشاف وحدث الأشياء، يكتفي بإلقاء الفكرة التي ستنجحها. وهو مخطئ، إذ كان يسير بسرعة فائقة، ولا بد أن يتوقف خمس دقائق عند أحدها لكي يقودها إلى منتهاها ويطورها، ويستكشفها لا سيما أن محتواها في كل مرة ظواهر مندورة لمستقبل واعد، فلتحكموا بأنفسكم. الراديو. الأشعة السينية. الهواء السائل. أداة التحكم عن بُعد. الإنسان الآلي. المجهر الإلكتروني. مسرع الجزيئات. الإنترنت. وما إلى ذلك.

نحن نعرف جيداً أن الناس تفكر، دائماً، في الشيء نفسه، في اللحظة نفسها. على أية حال قد يوجد على الأقل شخص واحد له نفس فكرتك. ولكن يوجد دائماً شخص آخر أيضاً يستطيع، بنفس الفكرة التي خطرت ببال الآخرين، أن يكون أكثر صبراً، وأكثر منهجية أو حظاً، وأحسن فطنة وأقل تشبهاً من غريغور، فلا ينذر جهده إلا لها فيفوق الباقيين جميعاً بإنجازها. وهو، بصفته الأول، من يعطي اسمه لتلك الفكرة. وهو الذي يضعها في السوق، والذي يتاجر بها، والذي يقبض. قد لا يستوجب ذلك أحياناً غير اسم. لنأخذ السينما، مثلاً. كانت مجموعة

كاملة قد اخترعتها في الوقت نفسه، ولكنْ يوجد بين تلك المجموعة أخوان يسميان لومير. فالمسألة كلها مرهونة في أشياء ضئيلة، أليس كذلك، ويكفي لذلك شيء في غاية البساطة: يمكن أن نتخيل أنه ليس غريباً، باسم شهرة كهذا، أن يكونا هما من فازا بالقضية⁽¹⁾.

ذلك ما حصل مع غريغور: سوف يستحوذ الآخرون على أفكاره فيما هو يواصل حياته في غليان. ولكنْ أنْ تُغلي ليس كل شيء، إذ يجب بعده أنْ تُصْفَى، وتُرْشَّح، وتُجَفَّف، وتَهْرَس، وتُرْحَى وتُحَلَّل. احسب، زَنْ، تقاسم. غريغور لا وقت له للاهتمام بكل ذلك. أمّا هم، في ركنهم، فيُخَصِّصون كل وقتهم ليوصلوا أفكاره إلى غايتها، فيما يكون هو قد ارتقى لاهثاً على شيء آخر. وتسجيل البراءات لن يُجدي نفعاً، ولن يَمْنَع رونتغن⁽²⁾ من ادعاء الأشعة السينية لنفسه، ولا ماركوني⁽³⁾ من ادعاء اختراع الراديو.

(1) اسم شهرة الأخوين لومير Lumière يعني «نور»، وهو ما يوظفه الكاتب في عبارته.

(2) فيلهيلم كونراد رونتغن Wilhelm Conrad Röntgen (1845-1923) عالم فيزيائي ألماني ينسب إليه اكتشاف الأنشطة الإشعاعية. أول فائز بجائزة نوبل للفيزياء عام 1901.

(3) غولييلمو ماركوني Guglielmo Marconi (1874-1937) فيزيائي =

ذلك أيضاً أنّ غريغور يبالغ نوعاً ما، مع ذلك التزوع الدائم إلى تقديم اكتشافاته بصخب، فهو أقل حرصاً على التشبّث بها من قرع الصّنوج لإحداث أكبر ضجّة ممكنة. دون أن يقرّر في غلّوه، متقدّماً فوق الحدّ دونها خوف من المبالغة. الرّوبوت مثلاً، ما إن صاغ مفهومه حتّى هرع إلى المصوّرين هاتفاً إنّهُ سوف يقدّم عمّا قريب رجلاً آلياً إذا تُرك لحاله تصرّف وكأنّه وُهب عقلاً، دون أن تُملّى عليه إرادة خارجيّة. حسناً يا غريغور، نحن لم نبلغ ذلك اليوم، ولو أنّه في يوم ما، من يدري.

ولكنّ له خاصّة انشغالاً أكبر، كان أعدّه انطلاقاً من وشيعة ذات مغناطيس كهربائيّ، براءة اختراع رقم 512.340، بفضلها يمكن إنتاج كمّيات هائلة من الطّاقة بلا تكاليف، يكفي جزءٌ صغير منها للمحافظة على اشتغاله. فكرة عظيمة. مثل سيّارة ذات خزّان ملآن لأنّه يتجدّد

= ومخترع ورجل أعمال إيطاليّ ينسب إليه اختراع الاتّصال اللاسلكي والراديو والفونوغراف حيث أسّس شركة «باتي ماركوني للأسطوانات» مع الفرنسي إميل باتي. مُنح جائزة نوبل للفيزياء عام 1909 بالاشتراك مع الفيزيائي الألمانيّ كارل فريدناند براون (Karl Ferdinand Braun 1850-1918).

على الدوام، ولا يستهلك رغم ذلك سوى لتر في المائة. ستكون تلك أول لبنة في غرضه الأساسي: نظام يسمح للجميع بالحصول مجاناً على الطاقة الحرة.

وذلك يدلّ على تصوّره الغريب للمال. إذ أنّ وجهة النظر هذه لا تتفق مع تلك التي يحدّدها المنطق التجاريّ والمصلحة. وإذا كانت الصحف قد أعجبت سريعاً بهذه الفكرة، وأعلنت أنّ غريغور سوف يمدّ بالكهرباء الأرض كلّها، وأنّه وجد وسيلة لنقل طاقة كونيّة دون أن يُكلّف ذلك أيّاً كان شيئاً، فلنا أنّ نتخيّل، عند سماع هذا الخبر، كيف أنّ ملفات الحسابات، داخل مجالس إدارة الشركات المسجّلة في البورصة، فُتحت، والوجوه انغلقت، والأصوات ارتفعت لتقترح اتخاذ إجراءات وتوصي بالاجتماع لدرس حالة هذا الشخص عن قرب.

في تلك الأثناء، وقتّ الأماسي، وفي جوّ غبطة النّجاح المعتادة، كان غريغور يواصل في الغالب استقبال مشاهير في مختبره، حيث يقفون في فرح من أجل أول صور مضاءة بمصابيح من الغاز القابل للاحتراق. وكانوا لا يزالون يحبّون دائماً رؤية غريغور وهو يعرض نفسه مزهوّاً تحت

وابل من الشرر الذي تُنتجُه محوّلاته ذات التردّد العالي، أو وهو يرفع أحد أنابيبه الزّجاجيّة الطّويلة اللّامعة، ولكنّ دون أن تكون يده الأخرى، هذه المرّة، موصولة إلى أيّ كبل: تطوّر غريب.

بعد أن غادر مكتبه، تنبّه إلى حمامة جريجة لاذت بركن من الرّصيف، خلف صندوق قمامة، جرّت نفسها إليها كأنها كي تموت هناك في سلام. ولما انحنى عليها غريغور، شخّص كسراً في جناح وساق، ولكنّ الحمامة نظرت إليه نظرة خالية من الوهم، كأنها تنصحه بتركها وشأنها قبل أن تُشبح عنه عينها المدوّرة. إلّا أنّ الحمامة، وغريغور يواصل فحصها، بدت متأثرة بهذه اللّفتة، إذ أعادت النّظر إليه، وتطلّع أحدهما إلى الآخر طويلاً كأنهما سيتبادلان بعض الكلام.

رفع الحيوان بلطف، ولفّه في أحد مناديله النّقيّة الثلاثة ثمّ وضعه برفق تحت ثنيّة سترته، قريباً من إبطه وكأنّه يرّخه. بعد ذلك، ودون أدنى تفكير في الميكروبات التي ينجّسها أيّما خشية - والتي نعرف أنّها تتوافر بكثرة في ريش تلك الحمامات القذرة، المغزّوة أيضاً بالبراغيث والقراد والبقّ

والقمل الأحمر والقمل الطّاحن-، حمله معه إلى الفندق. عندما وصل إلى غرفته بوالدورف، بنى للحمامة في البداية، وكان ماهراً في الترميق والترقيع، ما يشبه العشب بواسطة الأغشية والكرتون، ثم شرع في إخراجها من مأزقها. كان لا بدّ أولاً من تطهير الطائر ثم تغذيته قبل تسوية أعضائه المصابة بواسطة جبيرة صغيرة، وتركيبه مسامير وأعواد ثقاب مشدودة بسلوك مطاط. وبما أنّ غريغور ليس رديئاً أيضاً في علم الأحياء، فقد رتق الحيوان خلال النهار، وحرصاً منه على احترام قانون الفندق الذي يحرم وجود الحيوانات داخل الغرف، بنى له قفصاً قام بنقله خفيةً إلى سقف البناية. وبعد ثلاثة أيام من النّقاها، أطلق الحمامة وقد تعافت تماماً. ولم يتأسف لذلك.

جدول أوقات أنغوس نير، صبيحة هذا الثلاثاء،
يُظهر شدة ازدهامه بالمهام.

ينبغي عليه أن يحضر على التوالي اجتماع رؤساء أعمال،
وحفل كوكتيل مؤسسة ثم غداء لسادة المجتمع، في ثلاثة
أماكن مختلفة من نيويورك، ولكن لحسن حظه ليست
بعيدة كثيراً بعضها عن بعض. لذلك، في هذا الصباح،
وأمام خزانة ملابسه، أَلَفَ لنفسه لباساً يناسب تلك
الاجتماعات، فهو يمزج بين الصرامة الإدارية - كسوة
ذات قطع ثلاث وربطة عنق سوداء - والرّفاهية الأكثر
راحة رغم كونها مُلزمة هي أيضاً للكوكتيل: منديل صغير
في الجيب الأعلى وربطة عنق ملوّنة، مزدانان بنفحة من
أناقة المجتمع الرّاقى، وزهرة في عروة السترة وربطة عنق

فانتازية تحسباً للغداء. ليس الأمر سهلاً ولكنه توصل إليه، متوقعاً تغيير ربطة العنق مرتين خلال تنقلاته في الكبريلة⁽¹⁾، وإضافة الزهرة، في المحل الأخير.

يتنظم اجتماع رؤساء المؤسسات في مقر جنرال إلكتريك، القوة الداعية. هناك يوجد مختلف مديري الشركات التي تستثمر موارد الطاقة - بترول وفحم وغاز وخشب-، ووسائل النقل - الحديدية والبحرية-، والاتصالات والأمالك العقارية- التصرف في الإرث والبناء-، ومن بينهم طبعاً على رأس القائمة توماس إديسون نفسه، فهو الذي دعاهم جميعاً. ومثلما توقع أنغوس، كانت الأحاديث مركزة فقط على آخر تصريحات غريغور. عند ذكر هذه المسألة، ازدادت الوجوه عبوساً والأصوات حدة خصوصاً أنّ مسألة الطاقة الحرة تلك كانت موضع خلاف في وجهات النظر. إذا كان بعضهم لا يزالون يعتبرون غريغور مُشعِداً متوهماً- الاكتشاف المزعوم الذي أعلن عنه لا يستقيم في نظرهم-، فإن آخرين يستدلّون بنجاحه غير المتوقع داخل ويسترن يونيون

(1) Cabriolet: سيارة بسطح قابل للطي.

لإبداء المخاوف بشأنه: لقد برهن الرجل على قدرته على الابتكار، وحصل على نتائج فعلية وهذه الفكرة، فكرة طاقة بأقل التكاليف، الفكرة المجنونة، الخطرة، يمكن في النهاية أن تتحقق. وسط الهيجان الجماعي، تسلل أنغوس نير مستعملاً مرفقيه حتى وصل إلى توماس إديسون.

لم يُعِزه إديسون في البداية نظرة، ولكن أنغوس توصل إلى لفت انتباهه ثم محادثته بإعادة كلامه عدّة مرّات نظراً لصَمَم المخترع، مع الحرص على ألا يسمع كلامه شخص آخر - باختصار هي مسألة أكثر تعقيداً من صبيحة اليوم أمام خزانة ملابسه. ولكن، بعد أن استرعى أنغوس اهتمام إديسون، مال عليه هذا وانقاد وراءه حتى ركن من قاعة المحاضرات أكثر هدوءاً. بعد محادثة مقتضبة، نطق إديسون بوضع كلمات لا تُسمع وسط الضجيج ولكنها تنم فيها يبدو عن موافقة. موافقة شاردة، لطفتها إشارة ارتداد كالتي نأتيها للدلالة على أننا لسنا مسؤولين، وأننا نفوض في القضية سوانا ثم ننفّض منها أيدينا، قبل أن يتعد على الفور. غير أنّ تلك الإشارة وتلك الكلمات كانت كافية فيها يبدو بالنسبة إلى أنغوس، فبعد أن حنى رأسه احتراماً،

وأيقن أن ليس ثمة ما يُبقيه، غادر الاجتماع خفيةً ليقف كبريلة أسفل العمارة.

في حفل كوكتيل مؤسّسة وستنغهاوس، كان الجوّ مختلفاً تماماً. فلا حديث عن غريغور إلّا للإشادة عند الاقتضاء بإسهامه الجليل في مكاسب الشركة- والملاحظ أنهم يُفسحون له المجال كي يحكي ما يريد. ويُطلقون بالعكس سجيّتهم للفرح بحصولهم على شبكات كهربائية لا تفتأ تتسع، وبناء وحدات إنتاج لا تني تكبر، ونجاحهم في تطوير تقنيات جديدة للتُربينات⁽¹⁾ البخارية والتّخطيط للتفرّد بدفع السفن الشّاحنة، وسفن النّقل والمراكب الأخرى الكبيرة الحجم. كانوا يرفعون الأنخاب الواحد تلو الآخر، فلم يُطل أنغوس بقاءه.

حان وقت تناول غداء شبيه بتلك التي تُنظّم عادة في الصّالونات الخاصّة أو في مطاعم الفنادق حول غريغور، المحاط في الغالب بنجوم يتجدّدون بانتظام- مارك توين، مثلاً، في ذلك اليوم- ولكّنه محفوفٌ دوماً بمقرّبيه، حراسته الخاصّة المختزلة في الزوجين أكسيلرود اللذين اتّجه أنغوس

(1) Turbine: التّربينة هي محرّك ذو دولاب يُدار بقوة الماء والهواء أو البخار.

نحوهما مباشرة. قرابة خمسة عشر شخصاً يتحدّثون فيما بينهم وإن كانوا ملتفتين خاصّة نحو غريغور الذي يجذب وحده كمغناطيس الانتباه العام، والحال أنّ فنّ إغرائه متناقض: فهو نشيط ولا مع، وحتىّ مشوّش، بقدر ما هو رزين ومتحفّظ، وحتىّ جافّ، أو مُغتمّ وغامض، وحتىّ عويص، يعرف كيف يأسر الجميع ولكنه يعيش وحده، يجذب الناس الأكثر اختلافاً، رجالاً ونساءً دونما تمييز.

نساء لا يستهان بعددهنّ كنّ فعلاً هناك، كثير من المتزوجات ومن الحُرّات أيضاً استسغن غريغور فرُخن يُقلّبن نحوه نظرات ناعمة، مُحترسة ولكنها راغبة - عيون الزّوجات ترنّ على نفس المفتاح الموسيقيّ وإن بفيراتو⁽¹⁾ أقلّ. ولحسرتهمّ جميعاً، يبدو أنّ غريغور، من بين مساوئ طبعه، لا يميل كثيراً إلى الملامسة الجسديّة، هو لا يتجنّبها لأسباب صحيّة بل على سبيل الحشية - فلا شيء يعادل في رعبه الشّعْر، المريع بالنسبة إليه كرعب الخيوط الكهربائيّة العارية بالنسبة إلى كلّ من عداه. ثمّ هناك كُرهه المطلق

(1) Vibrato: تغيّر دوريّ منظم لصوت نوتة موسيقيّة بحسب طبيعة الآلة وتقنية العازف.

للمجوهرات التي يُزَعَجُه رنيتها، ويُعشي بصره لمعائها
ويُذهله ثمنها. تُروّعه الأقراط بوجه خاص، ويُجمّده
شخصها المغرور في اللحم، وكذلك اللآلئ، بأصلها
الصدفي ولونها اللبني، فهي تثير في نفسه اشمئزازاً تاماً.
إلا أن شخوص الجنس الآخر لا يَأْبَهُنْ بذلك ويتنافسن في
طقوم المجوهرات لإغرائه، ويلعبن هكذا كل مرة بعضهنّ
ضدّ بعض قبل أن يرجعن خائبات، يُخفين روعهنّ تحت
غمزات متواطئة وإن كانت مطفأة، وضحكات متغنّجة
وإن كانت فقدت رنين صوتها.

وحدها إيتيل أكسيلرود تُعجب غريغور في الواقع:
أنيقة برصانة - قارئة مواظبة لـ «هاربرز بازار»⁽¹⁾ - ومزوّقة
لماماً، لا تلبس، يا للأسف، شيئاً أبداً ما عدا خاتم زواجها
الذي يُعقّد كلّ شيء، فصداقة الرائع نورمان تمنع غريغور
من أيّ تجاوز. قد كان يسمح لنفسه في ظروف أخرى أن
يخدع زوجة رجل آخر أمّا هنا، مع هذا الزوج، فكلّا.
حتى وإن كان يُجسّد أيضاً، ويُحسّ أنّه يجسّد الرّجل المثاليّ

(1) Harper's Bazaar: مجلة أمريكية للموضة النسوية، أسبوعية عند تأسيسها
عام 1867، ثم شهريّة منذ 1901 إلى الآن.

لديها، فإن من المستحيل أيضاً بالنسبة إلى إيتيل، ولها مثل هذا الزوج، إلخ.

هذا الزوج كان قد تبادل للتو بعض كلمات مع مارك توين حول أحداث هذا العام، مستنكراً بالأساس الحرب ضد إسبانيا. مارك توين كان يدعو إلى التحالف، مثل وليم جيمس⁽¹⁾، ضمن رابطة مناهضة للإمبريالية، فيما كان نورمان يسخر بهدوء من ضعف الجيش الأمريكي في مجال التجهيز الصحي، إذ قُتل نحو أربعمئة جندي في المعركة من جملة خمسة آلاف ماتوا بالحمى الصفراء، والزحار والتسمم الغذائي. لم يكن لأنغوس من غاية، وهو يحاول أن يعلّق بهذه المناقشة، سوى التسرّب إلى دائرة الزوجين أكسيلرود لكي يتوجّه بالخطاب بعدئذ إلى إيتيل، ولكن دون جدوى إذ ظلت ترنو بإصرار إلى غريغور مثل إبرة بوصلة عنيدة.

غادر أنغوس المائدة قبل نهاية الأكل مُهملاً، متردياً إلى شيء لا قيمة له، محاولاً أن يسيطر على مرارته وإذلاله، بتعلّة

(1) William James (1842-1910) عالم نفس وفيلسوف أمريكي والأخ الأكبر للزواني الشهير هنري جيمس.

لم يسأله عنها أحد. نادى كبريلة أخرى، واقتيد بتصميم
إلى مكاتب جنرال إلكتروك ليواصل عمل المُخبر، فيما كان
غريغور بعد التحلية، والقهوة والمشروبات الروحية التي
طالما امتنع عنها، يعود وحيداً بإصرار إلى المختبر.

عندما عاد غريغور إلى المختبر، في ظهيرة تلك الثلاثاء، اقتعد كرسيّاً بدل الإقبال مباشرةً على العمل، وقد داخلته كآبة خفيفة. كلّ تلك الاجتماعيات. كم هو متعبٌ أن يكون المرء داخل ذاته على الدوام، دون سبيل للخروج منها، أن ينظر دوماً إلى العالم من خلال هذا الغلاف الذي ننحبس فيه، ولا يقدر أن يُظهر من ذاته لهذا العالم سوى مظهر خارجيٍّ مزوّق بقدرٍ أو بآخر مستعيناً بالمرايا. ما عادت له رغبة في أيّ شيء، فجأةً. نوبة حزن خفيفة.

غير أن الكسل ليس من طبعه كما أنه يجهل كلّ شيء عن السّامة، لانشغاله في العادة بحبل أفكاره التي تعمل بمفردها كامل الوقت، رغم كلّ شيء، دون أن يقرّر ذلك. تموّجت عيناه في المختبر الذي تخترقه عمودياً ركيزة عظيمة

من الصُّلب تشدّ كامل البناية طابقاً طابقاً في شكل عمود
فِقريّ، وتوقفتا عند تلك الرّكيزة ليقبّ فيها النّظر. وإذا
عبرت ذهنه فكرةُ تجربة، نهض ليفتّش في صندوق أدوات
حيث عثر بعد تقليب على ما كان يبحث عنه: نَوّاس⁽¹⁾
كهربائيّ آليّ صغير من صنّعه، لا يفوق حجمه لعبة من
اثنين وخمسين ورقة.

وبعد أن ثبت غريغور النّوّاس إلى الرّكيزة بأحزمة
ثمّ شغله، عاد إلى كرسيّه حيث انتظر، بحبّ استطلاع،
أن يرى ماذا يمكن أن يحدث. وها أن الأشياء الصّغيرة
المبعثرة هنا وهناك داخل المختبر جعلت، تحت التأثير
الاهتزازيّ لهذا الجهاز البسيط في ظاهره، تُرجع الرّنين
شيئاً فشيئاً الواحدة تلو الأخرى، رآها تهتزّ ثمّ ترتجف،
وسمّعها تهمس ثمّ تُدمدم. وما لبث الرّنين أن انتشر إلى
الأشياء الأكبر حجماً، من الأثاث إلى الأجهزة، إذ شرعت
تهتزّ هي أيضاً بازدياد، متمايلة إلى حدّ الانثناء. من مقعده،
رأى غريغور أن هذه الظّاهرة أهميّة، ناسياً تماماً نوبة حزنه.
ولكنّ ذلك التّذبذب ذا التّردد المنخفض جدّاً، انتقل

(1) Oscillateur: آلة تُحدث تيارات كهربائيّة متذبذبة.

تدرّيجياً، دون علم غريغور، إلى الرّكيزة نفسها، فبدت على وشك التجوّف بشكل لا يُدرّك في البداية. ومن ثمّ لم يعد هناك ما يمنع انتقال تلك الحركة إلى السرداب، الذي بدأ يَرَجف بدوره، قبل أن تمتدّ تبعاً إلى بنى مانهاتن الجوفيّة وكأنتها تحت تأثير زلزال - لا يجهل أحد أنّه يزداد قوّة عند ابتعاده عن مركزه السطحي⁽¹⁾. وبطريقة غير محسوسة ثمّ بادية أكثر فأكثر، بدأت عمارات الجوار ترتجّ، وتتصدّع، وتنشقّ، ونوافذها الزجاجيّة تنفجر فرادى في البداية ثمّ مجتمعة.

وما هي إلّا دقائق معدودة حتّى نزل سكّانها السّلام في فوضى ليلتقوا في الشّوارع، أغلّبهم ثابت والأنف مرفوع نحو الواجهات المتحرّكة، فيما كان الآخرون يهرعون لإنذار السّلطات. لنلاحظ بسرعة وجود الفتى أنغوس وسط ذلك الجمع، فقد هبّ مسرعاً، والخوف على حيّاه كالعادة ولكنّ دون زيادة. وما لبث أن التحق به رجلان من معارفه في الظاهر، أحدهما يبدو متنكراً في هيئة تابع أمين والثاني في هيئة باحثٍ عن شغل - في الواقع أحدهما

(1) Epicentre: سطح الأرض الواقع فوق بؤرة الزلزال مباشرة.

قاطع طريق والثاني عاطل عن العمل، ذلك هو الوضع الاجتماعي الذي يَخَصُّ كل واحد منهما.

في مخفر الدائرة، وبعد أن ثبت أن هذا الزلزال غير العادي لم يُصب الأحياء الأخرى من المدينة، لوحظ أنه يقتصر على محيط العمارة التي توجد بها تجهيزات غريغور. ولما كان غريغور قد نال سُمعة راسخة لما يمكن أن يُطلق عليه عالمًا مجنونًا، فقد اتجهت الظنون بسرعة نحوه وكُلِّف مبعوثان ليتأكدوا مما إذا لم يكن له دور في ذلك. في بنيته التي تهتز أقل من المباني المجاورة، وبما أنه في البداية لم يكن قد اطلع بعد على أهمية الظاهرة، استبد به قلق حينما أحس بالدوي الهائل الذي بلغ جدران المختبر وأرضيته، حيث اهتزت حتى الصور المعلقة في الجدران داخل أطرها مثل أفلام قصيرة تُعرض، حتى المناخ والهواء نفسه كأنهما بدأ يهدران، إحساس مُكثّر جعله يضع حدًا للتجربة.

عندما اقتحم الشرطيان مختبره، كان غريغور قد قرّر تحطيم النّوأس بمطرقة. طردهما بغلظة في انتظار إبداء موقفه، وهو ما لم يتأخر: كان الصحافيون والمصورون قد أقبلوا مثلها كان متوقعًا، فارتجل كالعادة في مثل هذه

الظروف، بأسلوب المصاب بجنون العظمة والمتكبر، ندوة صحافية - مُعلنًا عن اكتشافه أسلوباً يدمر في بضع دقائق، هذا إن استغرق كل ذلك الوقت، جسر بروكلين أو نيويورك وورد بيلدينغ⁽¹⁾، حسب الاختيار وحتى الاثنين معاً وفي الوقت نفسه إن شئنا. وهذا ليس من شأنه أن يُحسِّن سمعته، ولكن غريغور، وقد فهمنا ذلك، لا يتغي الكتمان على وجه الخصوص، بل العكس. وبعد هذا الحادث بقليل نشب حريق في مختبره.

قد يجوز التفكير في أن تجارب غريغور صارت من الخطورة ما لا يسمح لها بالاستمرار في مدينة كبيرة، وسط أهالٍ سليمي النية. ولا ننس أن وشائعه التي تُنتج جهوداً بعدة ملايين الفولتات، تُطلق أقواساً ضخمة قاذحة، وبروقاً بطول عدة أمتار. وليس مُستبعداً أن ذلك الإسراف يمثل مخاطر لا تني تزايد، وأن حادثاً يمكن أن يقع، حتماً، في هذا اليوم أو ذاك. يمكن أن نقول ذلك لأنفسنا. يمكن أن نتساءل أيضاً عن وجود العاطل عن العمل في المنطقة، في ذلك المساء، يتأمل الحريق وهو يبرد أظفاره جنب قاطع

(1) The New York World Building مبنى نيويورك العالمي.

الطريق، وكلاهما كانا يرافقان أنغوس في ذلك اليوم. وأياً
كان المصدر، فالحريق لم يُراع شيئاً: إذ دمر الماكينات، وميّع
الأدوات، وأحال الملفات والمحفوظات رماداً، وسحق في
بضع ساعات كل الأعمال الجارية والمشاريع.

ضربة لثيمة أخرى لغريغور الذي، رغم ما ساوره
من شكّ ولكن دون أن تحمدهمته أبداً، طلب النصيح
من محاميه. بدل المجازفة بملاحقات قضائية، اقترح عليه
المحامي أن يبحث له عن مقرّ عمل جديد أكثر عزلة،
وأبعد مسافة. وبما أنّ هذا الرجل كان مُساهماً في شركة
كهرباء على بعد ألفي كيلومتر من نيويورك، فقد عرض
عليه أن ينزل هناك، في كولورادو سبرينغس، حيث
ستمّده شركته بالتّيار مجّاناً. بصراحة، قال غريغور، تغيير
الجزء، لم لا؟ لنرحل.

من المعلوم فعلاً أنّ الهواء في جبال كولورادو الأكثر جفافاً وشفاءً منه في أماكن أخرى يفرق بكهرباء ثابتة: فيه سيجد غريغور مناخاً مناسباً لمشاريعه، الأوفر عدداً من أيّ وقت مضى، والتي بروم الاشتغال عليها سريعاً. إضافةً إلى تجاربه في الموجات الكهربائية المغناطيسية الأرضية والجوية، كان يعتزم تصميم منظومة عالمية للإبراق اللاسلكي، وخصوصاً تطوير فكرته الثابتة: إيجاد وسيلة لنقل الطاقة مجاناً وبلا حدّ إلى أقصى أرجاء الكرة الأرضية. ولهذا الغرض، ينبغي أولاً بناء مُرسِل.

عند وصوله إلى كولورادو سبرينغس، نزل بفندق ألتا فيستا. حدّره من المصاعد جعله يقيم في الطابق الأول حيث اختار الغرفة 108، وهي ليست بأفضل من سواها

ولكنّ رقمها يمتاز بكونه قابلاً للانقسام على الرّقم الذي نعرف. بعد أن وضع حقائقه، أمر الخادمة بأن تُمدّه يومياً بشهانية عشر منديلاً نظيفاً، مشيراً أنّه يفضل ترتيب الغرفة بنفسه. ولما سوّى المسألة، قاده عربّة يجرّها ثوران صحبة مساعديه نحو الموقع الذي حُجز له.

كانت الشمس ترسل أشعة ساطعة على كولورادو والزوابع العنيفة تندلع بشكل متواتر، بل إنّها أحدثت ذات مرّة نحو ستّة آلاف برق في السّاعة: مقرّ بحوث مثاليّ، ميدان ممتاز لأشغال غريغور الذي يزعم، بما يدّعيه من حدّة سمع مُفرطة، هذا إنّ لم يكن مهووساً بالمبالغة - وهو نفس المشكل معه دوماً -، يزعم أنّه يسمع الصّاعقة على بعد ألف كيلومتر، فيما مساعده لا يكادون يدركونها إلّا على مسافة مائتين. الموضع الذي أُعطي له في الجبل يستجيب على أيّة حال لميله إلى الغموض والسّريّة: لا يحيط به غير مراعٍ تتنقّل فيها خيول لامبالية، والمبنى الأقرب هو مؤسسة للضمّ البُكم. بعد أن ألقى غريغور نظرة شاملة على المشهد، والحيوانات المختلفة والطّيور المحليّة، أخرج من حقيبتّه حزمة من التّصاميم بسطّها على محامل قبل أن

يَسْتَدْعِي مَصَانِعَ الْجَوَارِ.

جهازُ إرسالِه، بعد أن أنشئ، كان عبارة عن بناية
مربعة من الألواح الخشبيّة، مملوءة بوشائع ومحوّلات،
يغطّيها نوع من برج رئيسيّ في حصن، حيث تبرز صارية
معدنيّة طويلة تعلوها هي أيضاً كرة من النحاس. وبعد أن
وصل غريغور الصّارية بنّوا س قوَيّ ذي جهد عالٍ وتردّد
مرتفع، بدأ يخلّق الزّوابع، محتشمة في البداية ثمّ أكثر فأكثر
إثارة. وسرعان ما صارت تلك التّجارب شديدة الصّخب
ولكنّ بما أنّ المرسل كان بعيداً عن كلّ شيء، فمن المحتمل
ألا يُزعج أحداً. ثمّ إنّها كانت تدور دائماً في عزّ الليل، حين
يكون الجميع نائمين في ظلام كولورادو سبرينغس، ما
يجعل استهلاك التّيار عندئذ ضعيفاً ويسمح لغريغور بأنّ
ينهل بلا نهاية من تيار الشّركة المحليّة.

خلال تلك الليالي، كان إذا تمهّياً لتشغيل آلاته، احتاط
الجميع لوقاية أنفسهم. كان هو ومساعدوه يحتذون
نعالاً من الفلين، ويغطّون أيديهم بقفّازات من اللّبّد أو
الأميانت⁽¹⁾ العازل ويصمّون آذانهم بالقطن حتّى طبّلاتها.

(1) Amiante: حرير صخريّ ناعم.

وبعد تشغيل المُسَيِّب، تبدأ بروق تَحْطَفُ البصر بالتعاقب، أكثر كثافةً وامتداداً من بروق زوبعة طبيعيّة، تتخلّلها سُجُونٌ لامعة، شائكة، مختلجة، قبل أن تتّصل دون انقطاع بروايات الصّواعق في الجهة على بعد ثلاثين كيلومتراً من كلّ ناحية، تحت صخب الأقواس الكهربائيّة.

كلّ ذلك، وإن كان بالغ الطّنين، لم يكن يُزعج الجوّار كثيراً ولكنّ صادف ذات ليلة أنّ غريغور، في أوج حماسه، جاوز الحدّ وخلق جمجمةً مُقرّطة. وإذا بالجميع، في كولورادو سبرينغس، فجأةً، ما عادوا ينامون: أيقظ الحجم الجبّار الأهالي فزعين، فكانوا يهرولون مروّعين في قمصان الثّوم، بعضهم على حصان وبعضهم على عربة ثيران، وحتى على قدميه رغم طول المسافة كي يرى ما يحدث. كانوا منذهلين وإن بقوا على مسافة معيّنة، ليقينهم بأنّ هذه الصّاعقة المصطنعة يمكن أن تمحوهم من الوجود بضربة واحدة، ظلّوا في البداية مأخوذين قبل أن يدبّ النشاط في صفوفهم بفعل شبكات قطع صغيرة متأججة تتسرّب بحيويّة بين حبّات الرّمْل قبل أن تنفجر تحت أقدامهم. جعلوا يتراقصون دون إيقاع مثلما شاهدنا

جميعاً، في أفلام الويسترن، ما يفعله رعاة البقر حين تُطلَق
الثار على أرجلهم، فيما كانت شرارات طويلة حول
المختبر تنبثق بصوت ثاقب من كل شيء معدنيّ متّصل
بالأرض، ففي المراعي المجاورة، جعلت خيولُ جَرّ
هادئة، وقد التَقَطت حدودها شحنات كهربائية، تتمرّد
وتحتاج مستشيطة، وتسهل بأكثر وحشية مما لو فكّرت في
المجزرة، وتصوّرت ذهنيّاً عملية السِّلخ.

تلك المغامرة التي حظيت بتعاليق واسعة كانت
موضوع مقالة مُسهّبة في جريدة البلدية، عند قراءتها
استنكر الأهالي في البداية، ثُمَّ عبّروا فقط عن استيائهم،
وختموا بشعور ملؤه تسامح لا يخلو من اعتزاز بأنّ عالِماً
جليلاً ذا نفوذ اختار الإقامة في بلدتهم. عاد الهدوء إلى
كولورادو سبرينغس إلى أن أمعن غريغور في الغُلُو، أثناء
ليلة أخرى، حينما حاول إرسال موجة كهربائية ما فتشت
تزداد قوّة هذه المرّة ولم الحرج؟، سوف تدفع كوكب
الأرض نفسه إلى ترجيع الرّنين.

ستكون التّيارات الضّروريّة هذه المرّة أرفع، كما لم
تكن من قبل، وسوف تبلغ الجهود ملايين الفولتات.

لهذه المناسبة، ارتدى غريغور لباساً احتفالياً: طربوش مُلَمَّع، قفازان من جلد اليبكاري⁽¹⁾ فاتحا اللون جديدان وردنغوت موديل الأمير ألبير⁽²⁾. تلا عَدّاً عكسياً وكنم نفسه، ولما شغل مساعدُه القاطعة، انفجرت صاعقة جبّارة فوق المحطة واستشرى فيها ضياء أزرق صقيعيّ مع رائحة أوزون قويّة فيما كانت بروق عملاقة، بحجم ناطحة سحاب، تنبجس من الصّارية في هزيم رعد لم يُشَهد له مثيل. استمرّت الظاهرة بضع دقائق كانت خلالها تتسع وتتضخّم إلى أن انتهى كلّ شيء فجأة: لم يعد ثَمّة ضجيج، ولا ضوء ولا تيار خاصّة، ولم تعد ثَمّة وسيلة لإيقاد أدنى قنديل سهر.

ثارت نائرة غريغور فأرسل أحدَ مساعديه إلى شركة الكهرباء بـكولورادو سبرينغس، وكانت المدينة هذه المرّة غارقة في الظلام. سمع المبعوث من الحارس الليليّ المذعور، ثمّ أكّد كلامه ضابطُ الإطفاء، أنّ المولّد الأساسي للشركة، وقد أثقلته تلك التجربة، انفجر قبل أن يشتعل.

(1) Pécari: خنزير برّي صغير الحجم.

(2) Prince Albert (1861-1819): زوج الملكة فكتوريا، وأبو إدوارد

عندما دُعي غريغور من الغد، أعلمه المدير بجفاء أن الشركة تُعلّق توزيعها، ولن تقبل بمُدّه بالتّيار من جديد إلا إذا أصلح المولّد على نفقته، إصلاح سرعان ما أمّنه رجال غريغور خلال أسبوع.

عادت كولورادو سبرينغس تبدي عدم رضاها عن المخترع، فالصحافة المحليّة استاءت للانقطاع، والنّاس في الشّارع صاروا يخبّونه بأقلّ من ذي قبل، وعدد المناديل اليوميّة ونظافتها، في غرفته بالفندق، باتت أقلّ مطابقةً لشروطه. لم يُبال، إذ واصل بحوثه بالتّوم غالباً في موقعه، ليس أكثر من بضع ساعات لأنّه كان يعمل بلا توقّف إلى أن وضع تصميم منظومة الإبراق اللاسلكيّة التي سجّل على عجل براءة اختراعها - ولكنّ بسرعة مفرطة، هذه المرّة، وبشيء من الرّعونة على الأرجح.

في ليلة أخرى، وفيما كان غريغور منكبّاً على جهازه القويّ لالتقاط الرّاديو، خبّل إليه أنّه سمع أصواتاً غريبة بدت له قادمة من الأقاصي، مُنعمّة بوضوح، ومُوقّعة بانتظام. بعد ذلك بثلاثين عاماً سوف يُتبيّن أنّها موجات ميكانيكيّة متأتية فعلاً من النّجوم غير أنّ غريغور، الذي

يستعجل دائماً تمجيد نفسه، عزاها بصوت رزين ودون
 تردّد إلى كائنات عاقلة بعيدة جداً، تسكن كواكب أخرى -
 الزُّهرة أو المريخ على أقلّ تقدير- تمتاز بالذكاء لا بل هي
 متفوّقة علينا علمياً وتحاول الاتصال به هو. هذا أمرٌ آخر.
 وبما أنّ غريغور يحبّ لفت الانتباه بقدر حبه للغموض،
 لم يلزمه المزيد كي يعلن بعد وقت قصير أنّه يتواصل مع
 سكّان المريخ. هذا الإعلان انتشر في سائر أرجاء البلاد
 عبر الصّحف التي كانت تهوى ذلك، والتي تفضّلت
 لوجود غريغور منذ زمن طويل كموضوع من ذهب،
 والتي لا تتورّع عن السّخرية منه ولو مقابل إمبراطورية -
 بينما كان المجتمع العلميّ، الجهم وغير الودّي، ينظر إلى
 مثل تلك التّرهات بتقدير أقلّ. ارتاح غريغور لهذه العمليّة
 الإشهارية، خصوصاً أنّه ما عاد يُطبق العيش في الرّيف
 حيث باتت شهرته فيه تتناقص كلّ يوم، فقرّر العودة إلى
 نيويورك. حزم على عجل حقائبه وهو يفكّر، فقد هزّه أنثى
 سؤال محيّر: بِمُ نُجيب سكّان المريخ، وكيف؟

ثم كفانا من الكولورادو. الهواء الجيد يصلح مدةً، ولكن لنعدّ إلى الوقت الحاضر. لنعد بسرعة لا سيما أننا بددنا كل شيء، وأنه بات ينبغي أن نجد نقوداً طرية للتسير ببعض المشاريع الجديدة قُدماً.

ليس ثقل العزلة هو ما حمل غريغور على العودة إلى المدينة الكبيرة. صحبة البشر لا تُغوزه مُطلقاً إذ يمكن أن يبقى وحيداً مع ماكناته، وصحبة النساء كذلك إذ يمكن أن يظلّ وحيداً أيضاً في سريره - ولو لبضع ساعات كلّ ليلة. والحق أنّ صحبة الأثرياء هي التي يحتاج إليها. مآذب العشاء في بلايرز كلوب، وديلمونيكوس ومحلات أخرى يرتادها أصحاب رؤوس الأموال المفيدون. مع أولئك، وبفضل كلام خلّاب لامع وخفيّ القصد، كان غريغور

يحاول دائماً، وينجح في الغالب، أن يسلب الأموال الضرورية لمواصلة أشغاله. إذا كانت عودته لأجل هذه الغاية، فإنه من الحق أيضاً، على مستوى الرفاه، أن العودة إلى والدورف أستوريا- حيث خطّ اقتراض مفتوح له على الدوام- ستعوضه لحسن الحظّ عن الأشهر الثمانية التي أمضاها في فندق ألتا فيستا.

خلال ما يقارب السنة التي قضاها غريغور في الجبل- وهي علاوة على ذلك آخر سنة في القرن التاسع عشر-، استطاع أن يلعب كما يشاء مع الزوابع، وأن يكتشف الموجات الثابتة، ويستعمل الكرة الأرضية كأداة مختبر ويستطلع أخبار سكّان الكواكب الأخرى. وهذه ليست حصيلة رديئة، ولكنّ حسناً، لنتقلّ إلى شيء آخر. هذا الشيء الآخر هو بناء برج عملاق سوف يقوم مقام محطة أخبار كونية: هذا ما قد ينال الاستحسان، قال غريغور في نفسه. وخاصةً جلب رؤوس الأموال.

إلا أنّهم كانوا ينتظرونه في نيويورك بقدم ثابتة. ولما كانت المجتمعات العالمية لم تستسغ حكايته عن سكّان المريخ تلك، فإنّ غريغور فقدّ اعتباره في عيون أعضاء

المجمع العلمي، التي كانوا يرفعونها إلى السماء، بامتعاض،
 لمجرّد ذكر اسمه. أما الصحف، التي تبتهج لاستغلالها
 من جديد هذا الكاريكاتير المثالي للهوس والشطط،
 فلم تتوقّف عن الاستهزاء به، وعن نحت شُهرة مثيرة
 للسخرية بحيث كان المترجلون يتسمون عند مروره،
 وصنيّة المصعد بوالدورف يشيحون بأوجههم عنه وهم
 يضحكون عندما يركب المصعد، وحتى أطفال أولئك
 الصحافيتين، وأولئك العلماء، وأولئك المترجلين، وصنيّة
 المصعد كلّهم يتبعونه في الشارع وهم يقذفونه بالكلام.
 ولكنّ غريغور لا يبالي إطلاقاً، وبما أنّ بناء هذا البرج
 الجديد هو فكرته الأولى، فإن الثانية هي إيجاد المال لذلك.
 هو يعلم أنّ الممولّين الذين سيتوجّه إليهم لا يزالون، هم،
 رغم كلّ شيء ينظرون إليه نظرة ملؤها الجِدّ.

ذلك أنّ هؤلاء لا يستطيعون أن ينسوا، رغم سُمعته
 التي صارت مثيرة للسخرية وسعي زملائه كي يُفقدوه
 اعتباره، أنّ غريغور، بفضل ابتكاره التّيار المتناوب، هو
 الذي ضَمِنَ لوستنغهاوس احتكار الكهرباء أمريكيّاً،
 عمليّة كهذه ليست سوى منجم بلا قاع. يمكن

إذن أن نتخيل أن فكرة بهذا الحجم، صادرة عن نفس الشخص، قادرة بلطف أن تضمن لهم ثروة بمثل تلك الوفرة. هم يعرفون أنه غريب الأطوار سريع الاندفاع ولكنّ الرّهان يستحقّ المجازفة، يجدر فقط أن يبقى المرء حذراً، أن يُراقبه ويؤطره بكيفيّة سليمة ويتركه يفكر. ولما كانوا لا يبالون بسُمعته السيئة، لأنهم يضعون عيونهم دوماً على الأرباح الممكنة، فإنهم كانوا يُبدون اهتمامهم الواحد تلو الآخر بغريغور حين يقدّم مشروعه الجديد، في اتجاه لا يمكن إلا أن يهتمهم.

بات الأمر إذن يخصّ منظومة عالميّة للأخبار، صارت ممكنة بفضل عدّة قنوات لموجة البثّ الإذاعيّ بكلّ أطوالها: برامج إذاعيّة، شبكات اتّصالات خاصّة، بثّ مضاربات البورصة وروابط هاتفية متبادلة من جملة أشياء أخرى. وفكرة احتكار الاتّصالات اللاسلكيّة هذه ذات المردود الكبير فيما يبدو للوهلة الأولى، بشرط أن تتجسّد، بدت تُغري أصحاب البنوك الأساسيّة. هم يريدون أن يعرفوا منه المزيد، يدعونه إلى العشاء، يقدّمونه إلى الوكلاء المفوضين. وإذا عاين غريغور ذلك، وأدرك الأهميّة التي

يثيرها لدى رجال المال، قرّر ألا يقف عند هذا الحدّ وأن يطرق باب مَنْ هو أعلى، ويسعى إلى الاتّصال بأكثرهم جاهاً، المدعوّ جون بيربونت مورغان.

ليس من السّهل الاقتراب من جون بيربونت مورغان، فأهمّيته تسمح له بالاحتفاء من العالم، بل تدفعه إلى ذلك. ولكنّ انظروا كيف تجري الأمور، فأحد القلائل الذين يستطيعون مخالطة جون بيربونت مورغان خارج الدّوائر المصرفيّة هو أيضاً أحد المقرّبين القلائل من غريغور: نورمان أكسيلرود. كان غريغور قد استعاد صلته بنورمان منذ عودته إلى نيويورك، ولكنّه كان يفضّل أن يلتقي به وحده وفي أماكن عامّة بدل بيته، لأنّه كان يخشى أن يرى من جديد إيتيل وله نحوها شعور مُزبِك لا سيّما أنّه متبادّل.

وكان لا بدّ أن يذهب ذات يوم لتناول الغداء في بيتها. لزم الطرفان نوعاً من التّحفّظ الأمين ولو أنّه كانت تتخلّله من هنا وهناك نظرات خاطفة. دار الحديث بصعوبة حتّى القهوة، نهض نورمان بعد احتسائها وذهب، حسب قوله، ليجيء بعلبة السّيجار من الصّالون. طال الصّمت بعد

خروجه وغمطط. بقيت مدة طويلة في كولورادو، سألت إيتيل أخيراً. سنة، ردّ غريغور. هي سنة صغيرة في النهاية. ولم ترأسني ولو مرة واحدة، قالت مذكرة. أرجو المَعذرة ولكنني كنت مشغولاً جداً، غمغم غريغور دون أن يحاول إخفاء سوء نيّته. ولكن، لِعَلِّمك، لم أخبر أحداً. ثم، أردف قائلاً، أنتِ تعرفين أيّ شخص قدر. ولكن أنا أيضاً، قالت إيتيل مبتسمة، أنا أيضاً شخص قدر.

ردّ كهذا يدفع إلى تصوّر عدّة آفاق، ما جعل غريغور يتطلع إليها بعينين جاحظتين. لم تكن النساء يتكلّمن بهذه الطريقة عام 1990. أما إيتيل فبلى. ران صمت جديد بدا خلاله غريغور، بعد أن نظر إليها مليّاً، مهتماً بشكل مُدهش بقاء فنجانهِ. كانت إيتيل لا تزال تبسم حينما عاد نورمان إلى قاعة الأكل، يحمل في يد علبة السّيجار، وفي اليد الأخرى رسالة توصية إلى جون بيربونت مورغان.

من بين كلّ رجال المال الذين حظي غريغور بفرصة لقائهم، يعتبر جون بيربونت مورغان أثراهم، بل إنّه في الحقيقة أقوى رجل في العالم، ييسط أنشطته ويقبض ريعها في المجالات الكلاسيكية الأكثر ربحاً وتنوعاً: البترول، والغاز، والفحم، والغابات، وسكك الحديد، والبحريّة والعقارات على سبيل الذكر لا الحصر. جوبيتر⁽¹⁾ الدولار، فرنكنشتاين في المعاملات، جون بيربونت مورغان هو عبارة عن رجل فظّ عديم الإحساس سريع الغضب، شعاره الذي يُحسد عليه يتلخّص في ثلاثة أوامر: فُكر كثيراً، تكلم قليلاً، لا تكتب شيئاً.

متين بشكل غير طبيعيّ، له كتفا فيل ونظرة أفعوان.

(1) Jupiter : ملك الآلهة وإله السماء والبرق لدى الرّومان.

يفضل جون بيربونت مورغان أيضاً أن يُرى بأقل قدر ممكن، وألا تُداول صورته خاصةً. ولكن إذا كان يكره أن تُلتقط له صور فليس بدافع التحفظ بل بسبب أنفه. لم يوجد ولن يوجد رجل له مثل ذلك الأنف، ولا أحد يتعذب بهذا القدر من تلك الزائدة الضخمة المائلة إلى اللون البنفسجي، المفلقة بحُفر، المكتظة بذرينات، المهورة بشقوق، الممدودة بسويقات، والمكسوة بدغل من الشعيرات. في الكليشيهات النادرة التي نملكها عنه، رغم أن ثمة دائماً تعليقات بضرورة ترميقها قبل نشرها حذر التعرض للإعدام، يبدو واضحاً أنه يستعد للقضاء على المصور.

سيكون هذا الوحش، المشبع في الواقع بالنجاحات الأنثوية، هو الذي سيسعى غريغور إلى إغرائه بالتلويح له بهذا الاحتكار: إمكانية التحكم في كل المحطات الإذاعية المقبلة، في العالم أجمع. هذا الوتر الذي ينقص قوس مورغان، الذي تهمس له غريزته بأنه يمكن أن يَغْنَم منه غنماً عظيماً، له كل ما يأسر رجل المال، لا سيّما وأن غريغور يعرف كيف يكون مُفَوِّهاً.

مفوّة ولكن كتوم. إذ إنه يحترز من الإفصاح عن الهدف الحقيقي، الأساس بالنسبة إليه، لمحطته الإخبارية. فعلاوة على كونها منذورة للاستعمال لاحقاً في الحديث مع سكّان المريخ- وهي نقطة أدرك أخيراً أنّ من الأفضل ألاّ يستفيض فيها، لكونها مدعاة للسخرية- فالمهمة الأولى لهذه المحطة تستجيب لنزوته الأولى: إنتاج الطّاقة بلا حدّ وتزويد العالم أجمع بها، وجعلها في متناول الجميع بلا نفقة من أحد. وبفضل إجراءات لا يعرفها سواه وينبغي أن تبقى كذلك، سوف يعمل مولّد غريغور القادم دون مصدر خارجي، فلا حاجة بعدئذ لأن يُجهد المرء نفسه في قلب باطن الأرض لاستخراج محروقات جوفيّة. ذلك كلّه انتهى: بفضل المنظومة الجديدة، سوف يصبح مستقبل الطّاقة حرّاً.

ولكنّ هذا الملمح الأهمّ لمشروعه، من الأفضل أن يحتفظ به لنفسه. ولا كلمة عنه لا سيّما أنّ فكرة محطّات الأخبار، وحدها، ستكون كافية للحصول على القروض المأمولة: مائة وخمسون ألف دولار حلّقت في ثانيتين من خزائن مورغان إلى حساب غريغور. أسكرته الفرحة

فجعل يغمر رجل المال بمدح زائف، مؤكداً بتواضع أنّ كريستوف كولومب وليوناردو دا فينتشي ما كانا ليوفّقاً في مسعاهما لولا عمّولون مثله. كان الممول أكثر هدوءاً، لاحظ وهو يمدّ عقداً أنّه يخصّ نفسه بـ 51٪ من حقوق براءات الاختراع كضمان لهذا القرض - مُلتحاً بنبرة ثقيلة على كلمة قرض.

بعد أن وُقّع العقد وحُفظ في خزانة، اقترح جون بيربونت مورغان، وهو سعيد بهذا الأفق الجديد من الفوائد، الاحتفال بهذا ودعوة غريغور إلى كأس في حانة فسيحة تُسمّى تاننبومز أويستر، في منعطف الشارع حيث مكاتبه. يصادف هكذا ألا ينفر رجل المال، رغم قلة رغبته في الظهور، من الاختلاط بعامة الشعب.

كانت حانة تاننبومز أويستر في ساعة الذروة ملائمة بالرّواد، والدّخان، والضّجيج، وصيحات التّهلّيل، والموسيقى الآلية وقرع الكؤوس، ولكنّ تجمّد كلّ شيء عند بروز رجل المال وقد عرفه كلّ واحد في الحال لأنّه كان يسبقه أنفه الأسطوريّ، اللّامع والكبير الحجم، مثل عربة ذات فانوس دوّار تعلن عن ركب استثنائيّ. وسط

صمت التَّبجيل الذي عمّ المكان، دنا جون بيربونت مورغان بتناقل من البار وطلب قدحين من الجعة بصوت غولٍ، فامثل السّاقبي على عجل وهو يرتعد قليلاً. ثُمَّ نظر إلى الزّبائن الجامدين، المتحلّقين حوله وكلّ واحد منهم يصرّ قُبعتَه إلى صدره بكلتا يديه إجلالاً، وقرّر أن يُدخل على الجوّ بعض انتعاش. عندما يشرب مورغان، صرّخ، الجميع يشربون.

هتافات: أسعدت دعوته الرّوّاد فطلبوا أقداح جعةٍ في أبسط الأحوال وعادت الأحاديث مع قرع الكؤوس، والموسيقى وما إلى ذلك في تناسق إلى أن صفّق جون بيربونت مورغان، بعد أن أفرغ كأسه بسرعة، على البار قطعة عشرة سنتات، كان لوقّعها، فجأةً، إلغاء الضّجيج. التفت الجميع في صمت نحوه وهو يلقي على الجميع نظرة دائريّة قبل أن يزعق مجدّداً. عندما يُسدّد مورغان، صرّخ، الجميع يسدّدون. واتّجه نحو الباب بخطى سريعة يتبعه غريغور، فيما كان الزبائن يفتشون في جيوبهم مصدومين؛ بناء البرج يمكن أن يبدأ.

هذا ما يمكن أن يكون عليه ذلك البرج حسب
مخططات غريغور.

سوف يُبنى من الخشب، مسنداً إلى مبنى مكعب
يعلوه قطب كهربائي ضخم، ويبلغ ارتفاعه ستين متراً،
وسيكون مئمن الأضلاع مخروطي الشكل، ويحتوي
على قضيب من الفولاذ يغوص عميقاً في الأرض،
وحوله سلّم لولبيّ. المبنى، الذي سيقام بالأجر، سوف
يحتوي على غرفة ماكنات وكذلك مختبر يفضي إلى قاعة
استقبال مجهزة بالرّفاه العصريّ. أمّا القطب الكهربائيّ،
فهو قبة مصنوعة من التّحاس المحبّب، تصوّرها
غريغور في البداية في شكل فطيرة قبل أن يفضّل عليها
قلنسوة فطر. أي أنّ المظهر العام سيكون فطريّ الشكل،

بوليطس⁽¹⁾ عملاق تقريباً.

ذلك هو مخطط البرج، بقي إيجاد المكان الذي سيقام فيه. اتفق أخيراً على قطعة أرض واقعة في لونغ آيلند، على حافة البحر، ثمن شرائها غير مرتفع والوصول إليها سهل، مائة كيلومتر على بروكلين، ساعة ونصف في القطار. بعد أن تمّ الاختيار، بقي الإقبال على العمل، فكان ذلك.

وبينما انطلقت الأشغال، وهب العمال بالعشرات، كان غريغور لا يضيع دقيقة. كلّي الحضور، يُرى في كلّ مكان في الوقت نفسه، وكأنه ضوعف أربع مرّات: في الورشة، والمكاتب، وفي المختبر، والصالونات. إذا كان لا يكفّ عن تفقّد تقدّم المبنى، ساعة بساعة وفي أدقّ جزئية من تصميمه، فإنّه يقضي أيضاً أيامه في تجهيزاته التيوبوركية الجديدة في الشارع الثالث، يتشاور مع علماء آخرين قدموا من شتى أنحاء العالم، دون أن ينسى تجسيد مشاريع بحث جديدة ومتعدّدة، كامل الوقت كذلك. من ذلك أنّه بعد أن تصوّر موديلاً غير مسبوق لطوربيد موجّه بالأشعة - مفيد دوماً في حالة نزاع كما شاهدنا مع إسبانيا -، كان يخصّص

(1) Bolet: فطر من الفطور الغشائية بعضه سام وبعضه الآخر صالح للأكل.

أوقاته الباقية في اكتشاف أشياء متنوعة وتصميمها، ويجرّر في آنٍ واحدٍ عشرات المقالات ويضرب بنفسه على الآلة الطابعة، بيديّ غيارٍ رتبها، مطالبٌ براءاتِ اختراعٍ تتعلّق بتلك الاكتشافات الجديدة وبتطبيقاتها العملية. أمّا ما تبقى من نهاراته ولياليه، فكان يُقضّيها وسط المجتمع الرّاقى في قاعات استقبال والدورف أو دلمونيكوس، حيث ما زال لا يرى أحدٌ غيره.

ومتى ينام إذن، لا ندري، لعلّه لا ينام. ومتى يُضاجع، لا شيء يدلّ على أنّه يمارس ذلك، وليس مستبعداً أنّ قليلاً من الوقت ينقصه كي يكون أكثر من أربعة أشخاص في الآن نفسه. حاضر دوماً، فعّال دوماً ونشط، ولا يمكن أن يُلام، ربّما، إلّا في مسألة تسجيل البراءات التي يتعجّل فيها بشكل يبدو معه مهملاً.

ثمّ إنّ ما من أحد يمكن أن يلومه على أيّ شيء، حتّى إيتيل بصفةٍ خاصّة، رغم التّواطؤ الحميم الذي يربطها بغريغور، وإن كان مضمرّاً وضمّتيّاً، غريغور الذي يعود دائماً أيام الثّلاثاء والجمعة لتناول العشاء في بيت أكسيلرود. دون أن تقرّ إيتيل بذلك أو تعيه، كانت أكثر

انشغالاً بمشاعر غريغور، بامتلاكه حياةً جنسيّةً أو لا، وأكثر افتتاناً بشخصه من أن تسمح لنفسها بالتدخل في أيّ نقطة من حياته المهنيّة. كانت تشغل كثيراً بتسريحة شعرها، واختيار فستان والتعطر لمناسبة تلك السهرات، وعندما يأتي، تكون حريصة على ألا تُديم النظر إليه وهو يفيض بالحديث عن تقدّم الأشغال في لونغ آيلند- فيما كان نورمان يُعدّ الكوكتيل بطيب خاطر والشابّ أنغوس نير، الذي يحضر أحياناً تلك المآدب، يؤثث وجهه المذعور ببسمة متقبضة مقيّداً عواطفه بعناية.

وبينما كان البرج الذي ستنتقل منه التجارب الأولى للبتّ الإذاعي يرتفع، علّم الناس من الصحافة، في الصّفحة الأولى من جريدة «فيلادلفيا أنكير» بحدث مذهل ولكنه مؤسف. شخص يُلقّب بهاركوني، اسمه غولييلمو، مولود بمدينة بولونيا، أسقط كلّ مشروع غريغور. فتى ذو أنف رفيع وبسمة حزينة، بعيداً عن نيويورك ومستقوياً ببراءة اختراعه رقم 7777، ماركوني هذا يعلن دون حياء عن اختراعه الرّاديو.

دون أسلاك فعلاً استطاع أن ينقل تلغرافياً رسالة

أولى عبر الأطلسي، من كونتيّة كورنواي⁽¹⁾ إلى جزيرة تير نوف⁽²⁾، مُثَبِّتاً أَنَّ الموجات اللاسلكيّة الكهربائيّة يمكن أن تعبر مسافات طويلة باتّباع تقوّس الأرض. كانت تلك الرّسالة في غاية البساطة، فهي لا تتكوّن إلّا من النّقاط الثّلاث لحرف «أس» برموز مورس، ولكنّ الأذى حصل. ماركوني هو الأوّل، وسيكون هو الذي يعود إليه استحقاق هذا التصميم. اندهاش الملأ أجمعين، وذ هول غريغور بخاصّة.

ما لبث النّاس أن تعجّبوا كيف توصّل ماركوني إلى مبتغاه بوسائل في غاية البساطة. يتساءلون عنه. وهم يجهلون أنّه لم يقدّم سوى باستغلال إحدى البراءات، براءة الاختراع رقم 645.576، التي أودعها غريغور قبل بضعة سنوات ولكنّ بحماية غير كافية. لا مجال لمعرفة أنّ تلك البراءة أرسلت في الخفاء إلى ماركوني. ولو عرفنا لتساءلنا، بدراسة العنوان المكتوب بخطّ اليد على الظرف الذي

(1) Cornouailles: كونتيّة (أي أراضٍ عائدة إلى كونت) تقع في جنوب غرب إنكلترا.

(2) Terre-Neuve: الاسم الفرنسي لجزيرة نيو فاوندلاند الواقعة في عرض الأطلسي بأمريكا الشماليّة، وصارت منذ عام 1949 تابعة لكندا.

يحيوها، إن لم تكن تتميز بنقاط مشتركة مع خط أنغوس نير. حتى وإن اعترفت المحكمة العليا، بعد اثنتين وأربعين سنة، بأسبقية أشغال غريغور في مجال النقل الإذاعي، ففي انتظار ذلك، أي قبل اثنتين وأربعين سنة، ها هي ضربة لثيمة أخرى بالنسبة إليه.

كان الحبر لا يزال ندياً على مقال فيلادلفيا أنكير حين دُعي على عجل إلى مكتب جون بيربونت مورغان. حسناً، قال له رجل المال، إذن لم يعد يُجدي، شينوك هذا، أليس كذلك؟ أرأيت ذلك الإيطالي، هو لم يحتاج مثلك إلى هذا الشيء الضخم لكي يبت. لحظة، أجاب غريغور، دعني أشرح لك.

كان لا بدّ له أن ينطلق، أن يلعب ورقته الأخيرة، أن يفتر ويفرغ ما في جعبته. شرح أن الراديو لم يكن سوى واحد من الاهتمامات الصغرى لبرجه العظيم، وكشف أخيراً عن رهانه الأكبر: مشروعه عن الطاقة الحرة. حتى تلك اللحظة كان يقدر أن من الأجدر السكوت عن تلك النقطة، علماً منه أنها تفترض مفهوماً للمال لا يتلاءم مع مفهوم السوق، وأنه من حيث المبدأ لا يمكن تمويل

إلا ما يجلب المكسب: خارج ذلك التّصوّر يستنكف المستثمرون. ولكنّ حسناً، يمكن للضّخم جون بيربونت مورغان أن يتعاطف مع عظمة المشروع، من يدري.

بلى، نحن ندرى: مورغان لن يكون حسّاساً أبداً. بما أنّه لم يمارس قطّ مهامّ مُحسّن إلى الإنسانيّة، لم يُبدِ رجل المال أيّ حماس لفكرة نقل التّيّار مجّاناً إلى مناطق يسكنها أينوس⁽¹⁾ ومولداف أو سينغاليون معدّمون. وهو وإنّ أكّد لغريغور أنّه يحفظ له كلّ وده وسنده المعنويّ، ألغى القرض بجزّة قلم. وتوقّفت أعمال تشييد البرج في فرقة إصبعين. إخفاق مرّة أخرى.

لتفهمني جيّداً، شرح مورغان، منظومتك لا تستقيم أبداً. فإذا أمكن للعالم كلّهُ أن ينهل من الطّاقة كما يشاء، فما يكون مصيري أنا؟ وأين سأضع العدّاد؟

(1) Ainous: الأينو أو الأوتاري أقيّات تعيش في شمال اليابان وأقصى شرق روسيا.

مع هذه الأشياء كلّها، التي مضت سريعاً مثل حياته بأشرها، كان غريغور يعيش عامه الخامس والخمسين. لا ندرك أبداً إلى أيّ درجة كانت تلك الأعوام سريعة، والحال أنّ الأيام تمضي ثقيلة والأصائل لا تنتهي. يُلفي المرء نفسه في سنّ معيّنة دون أن يفهم كيف حصل ذلك، حتّى وإنّ كان مثلاً غريغور يتفقّد ساعته طول الوقت، وحتّى وإنّ كانت الساعة لا تعطي غير فكرة ناقصة، مُغرِضة وفي كلّ الأحوال خاطئة عن ذلك العمر.

من كثرة تحرّكه بلا انقطاع، خصوصاً بعد هزائمه وإخفاقاته - الضربات التي يظنّ، والتي يعلم أو يجهل أنّهم أصابوه بها -، قد ينشغل ربّما بنفسه، ويعيد النظر في أساليبه ويصحّح علاقته بالعالم. سوف يجد مبرّراً

لذلك، ولكنه يبدو أنه لا يقيم له وزناً. فغريغور، بما هو عليه من تكبر ووثوق بالنفس، لم يغيّر شيئاً من عاداته، إذ كان يواصل الخروج كلّ ليلة، ويتزّى متبعاً بمنتهى الدقة تعاليم مجالات الموضة، ويحافظ على جناحه بفندق والدورف. من مدير التّذلل إلى صنية المصعد، كان يوزّع على الجميع بخشيشاً باذخاً على قدر إجلاله لنفسه، ويشترى في الصّحف مساحات عريضة يبرّر فيها مسلكه نقطة نقطة، ناسباً إلى نفسه كلّ اختراع جديد، طارحاً أفكاراً تخيلها على عجل دون أن يُخضعها لأدنى فحص تجريبيّ، مسلّطاً احتقاره على منافسيه ومعاصريه عاقّة، باختصار صار منفراً يوماً بعد يوم.

غير أنّ كلّ ذلك له ثمنه. والحال أنّه بات مُعديماً، مديناً، يعيش فوق إمكاناته بكثير ولا يواصل نمط عيشه إلّا بقروض. كان مورغان حريصاً على عدم الإفراط في التخلّي عنه، فينقده أحياناً على سبيل الإحسان أموالاً ما عادت تكفي لتغطية كلّ نفقاته، ثم إنّ المرء لا يمكنه أن يستعيد شأنه بفضل القروض حصريّاً. ولكي يحاول إيجاد المزيد من المال، عاد غريغور إلى تنظيم بعض العروض

المشهدية التي يملك أسرارها داخل المختبر، يقدمها لمن لا يزال يستطيع أن يعثر عليهم في سوق الأثرياء، محاولاً إغراءهم لجمع الأموال. إنها كان يفعل ذلك بحذر: مجازفة محدودة لأنّ المعني حصرتاً جمهور واسع الثراء، أجهل من أن يستطيع سرقة أفكاره: من باب الاحتياط، صار لا يدعو إلى العروض أيّ عالم.

عدا ذلك، كان يصل إلى مقرّ شركته كلّ يوم عند منتصف النهار تحديداً. تستقبله مساعداته عند المدخل لتأخذها منه قبّعته، وقفّازيه، وعكّازه قبل أن يتّجه إلى مكتبه حيث تكون النوافذ قد أُغلقت والستائر قد أُسدلت بعناية، لأنّ غريغور لا يستطيع أن يُركّز إلّا في العتمة التامة. لا يُسمح بمرور ضوء النهار إلّا عند اندلاع زوبعة، يكون خلالها مستغرقاً في كنبته المغلفة بالموهر⁽¹⁾ الأسود، يتأمل السماء والبروق المنهالة على نيويورك. وعلاوة على تناقص حبّ الناس له، ونزوع طبعه إلى التعكّر، يبدو أنّه بدأ أيضاً يفقد شيئاً من توازنه بظهور بعض العلامات المريية. حتّى وإنّ كان دائم الكلام وحده، يحاور نفسه باستمرار خلال

(1) Mohair: قماش مصنوع من وبر معزاة أنقرة الحريري الطويل.

أعماله، فإنّ المساعدين القلقتين يمكن أن تسمعاه عبر الباب، رغم أنّه منجّد، يثرثر وحده كأكثر ما يكون خلال أوقات الزّوابع تلك. يبدو عندئذ أنّه يتوجّه إلى البروق كما يتوجّه إلى مستخدمين، وأطفال، وتلاميذ أو زملاء، في تنوّع عجيب من الثّبرات الصّوتية: مواسياً، قاسياً، متذمّراً، رفيقاً أو مهذّداً، ساخراً أو منمّق الأسلوب، متواضعاً أو متعاطِماً.

والأدهى من ذلك أنّ غريغور، حتّى بعد الزّوبعة وأيّاً كان مزاج السّماء، لا يلبث أن ينطق في كلّ ظرف بكلام لا يفتأ يخلو من الاعتدال، معبراً عن أفكار عظيمة مغالية ومتكرّرة بشكل جعل أصحابه، أو القلّة التي تبقت له، يحاولون حمايته من تصريحاته.

وسواء كان مجنون عظمة أم لا، فهذا هو بيتكر تُربينة جديدة. قد تقولون إنّ تربينته ليست سوى تربينة، ولكن ينبغي الإقرار أنّنا هذه المرّة أمام تربينة استثنائية. لا جدال أنّها أخفّ وأقوى من الثّربينات الأخرى، لها كلّ ما يعيد مخترعها إلى الصّفّ الأوّل، ويُنكسبه أبهة جديدة. صرّح بتواضع، كعهده في العناية بفروق اللّغة، أنّه لا يرى أيّ

حدّ لتطبيقات تربينته التي يمكن أن تشغل كلّ السّيارات، وكلّ الشّاحنات، كلّ الطّائرات وكلّ القطارات، وحتى البواخر التي سوف تجتاز، بفضلها، المحيط الأطلسيّ في ثلاثة أيّام دون أدنى مشكلة. تعمل بالبخار أو البنزين على حدّ سواء، وهي أقلّ كلفة عند الصّنع من المحرّكات العنقيّة⁽¹⁾، وسوف تكون أساسيّة لا تُعوّض في مجالات متنوّعة كالزّراعة، والرّيّ، والمناجم، والنقل المحرّك بالماء والتّشليج. صيحات إعجاب، هتافات، مجد وآمال جديدة، شوهو غريغور متنفّجاً كما لم يكن قطّ عند التّطبيقات الأولى لتربينته التي أعطت في البداية نتائج ممتازة - قبل أن تُقيم الدّليل على حدودها.

لعلّها نهاية عبقرية غريغور العلميّة: بما أنّه أخطأ في حساباته التقديرية، فلا بدّ من الإقرار بأنّ صنع التّربينة أكثر تكلفة ممّا كان متوقّعاً. ما لم يفكّر فيه أيضاً، سرعة دورانها المرتفعة تمثّل خصوصاً عيبَ ميزتها: فهي وإنّ كانت فعلاً لا تضاهيها الماكينات السّابقة، عالية إلى حدّ لا يستطيع أيّ معدن أن يصمد فيها طويلاً. والنتيجة، نهاية التّربينة.

(1) Turbomoteur: عنفة أو تربينة يديرها الهواء المضغوط وتعمل كمحرّك.

نهاية جون بيربونت مورغان أيضاً، فقد تُوفي في أثناء ذلك. حتّى وهو يتلکأ، ظلّ حتّى تلك اللحظة ممّول غريغور الرئيس، وأوصى بتركة شؤونه الماليّة لابنه الذي ما برح أن تلقى التماساً.

نهاية السّنة على آية حال. في سياق الاحتفالات، ولكي يتمنّاها له سعيدة، أرسل غريغور بريداً بالمناسبة إلى ابن مورغان. الأوقات عسيرة، أوضع له مع ذلك في نهاية رسالته، ولا أخفي عنك أنّي يائس. أنا بحاجة ماسّة إلى بعض المال، ولا أستطيع أن أحصل عليه في أيّ مكان. أنت الوحيد الذي يمكن أن يُنجدني، وإذ أتوسّل عوّنك، أتمنّى لك ميلاداً مجيداً.

ثمّ سلّى نفسه بالذهاب لإطعام حمام ريزرفوار بارك التي لم تعد تُسمّى كذلك، إذ أُطلق عليها اسم برايانث بارك قبل أن تُبنى قُربها المكتبة العامّة الكبرى، وصار يتردّد عليها كلّ يوم. بعد أن خفّض حياته الاجتماعيّة يوماً بعد يوم، بدا أنّه يحوّلها إلى تلك الطّيور الدّنيئة، إذ لم يفقد شيئاً من عطفه عليها.

دخل الحديقة، وقبل أن يُخرج من جيّبه أكياس الحبوب

التي ستكون هداياها لآخر السنّة، هجمت عليه تلك
الطيور الوضيعة إذ عرفته، وهي تهدل بفضاعة بالعشرات،
خاطفة كالكواسر، فغطت كامل جسده بلونها الرّماديّ
القدر، وراحت تنكش بحميّة وبضرباتٍ مناقير متشنّجة
جيوبه المفتّقة. وهو مغطى من رأسه إلى قدميه بمعطف
الحيوانات ذاك، لا يتنفس إلّا لماماً لكي لا يُربكها، ظلّ
واقفاً لا يتحرّك قرب سياج الحديقة، فيما كان بعض المارّة
الذين وقفوا في الظلّ، وبأيديهم هدايا مغلفة، ينظرون إليه
عبر السياج وهم يهزّون رؤوسهم.

أوقات الأفراح تلك، غريغور يعرف جيّداً ما هي. رغم الوقاية التي حرص أن يكون عليها، وهو مُدَرَّع بالأنسجة والعزيمة، فإنّ البرد كان ينسرب إليه عبر فجواتها مع الضنى عبر خلاياه العصبية. حتّى وإنّ حسب حساب كلّ شيء هذه المرّة، وقد اعتاد تلك الظاهرة واعتزم الصمود وتقبل الأمور كما ينبغي، فالنتيجة هي نفسها كلّ مرّة ولا سلطان له عليها، ذلك أقوى منه: لم يكن على ما يرام.

لم يعد يستطيع أيّ شيء خلال تلك الفترة، لم يعد له حتّى أبسط رأي ثابت. إذا لم ينزل الثلج، تأسّف لذلك وتحسّر: كان يمكن على الأقلّ، ما دام الوضع على ما هو عليه، أن يظهر جيّلاً في اللوحة. ولكنّ إذا استجاب الثلج لتأسّفه وجعل ينزل، فإنّه يغدو أكثر تحسّراً، لأنّ الثلج سرعان ما

يتحوّل إلى وحل. الشيء نفسه بالنسبة إلى الهدايا. إن أهدي هدية بدت له تافهة. وإن لم يُهدد، فحدّث ولا حرج. قل الشيء ذاته عن المآذب التي يجهد الناس في إقامتها، ويجثون على أربع ليُتيقنوا قائمة الأطعمة: كلّما كانت جميلة، وكلّما بدت جيّدة، كان كلّ شيء له عنده طعم الورق المقوّى.

في مثل هذه الاستعدادات الفظة، غادر فندقه وسار نحو بيت آل أكسيلرود حيث، في غياب البديل، دُعي إلى تلك السهرة اللّعيّنة. الشارع، في تلك اللّيلة: جوقات موسيقيّة، يؤطّرها خلاصيّون⁽¹⁾ في زيّ موحد وأشخاص يضطلعون بدور بابا نويل من شتّى الأحجام يهزون نواقيس، تسيء أداء أناشيد حزينة أصلاً، وفرق إنشاد تتغنّى بتراتيل لا معنى لها في عطفة شوارع مزخرفة بأشرطة ذات فظاعات متعدّدة الألوان، تجوبها عربات ذات جلاجل، وتغصّ أرصفتها بأناس متوترين متورّدي الخدود، على رؤوسهم قبعات، وبين أذرعهم هدايا. اضطرّ غريغور أن يجد له سبيلاً متعرّجاً وسط رجال سكارى قبل الأوان، ونسوة

(1) Salutistes: أفراد من جيش الخلاص Armée du salut، حركة عالمية بروتستانتية أنشأها في إنكلترا عام 1865 القسّ الميثوديّ وليم بوث (1829-1912).

يصرخن بعصبية في وجوه أطفالهنّ، وعربات أطفال،
وعربات مجرورة وكراسي متحركة.

استقبلته شفتا إيتيل الحمراءوان الباسمتان وكوكيتيل
«بلودي ماري»⁽¹⁾ مناسب في يد نورمان. فرك غريغور
يديه في البداية أمام المدفأة كما نفعل في مثل هذه الحال
قبل عرض هدية رأس السنة، وكانت نجماً من الزجاج
من صنعه، ذو كثافة ضوئية متبدلة وألوان متغيرة،
يلمع بشكل غامض بلا انقطاع ولا ربط بأي شيء كان.
وهو واقف على كرسيّ، يثبت النجم في قمة شجرة
التنوب المزدانة بكرات كلاسكية وملائكة من الخزف
وشمعدانات صغيرة، تحت تهليل الزوجين أكسيلرود.
ثم انتقلوا إلى المائدة لتناول عشاء حفل تقليديّ - دعنا من
القائمة الأزلية - قبل أن يقدم آل أكسيلرود، وقت التحلية،
لغريغور هديتيهما: من طرف نورمان طبعة لوردزورث⁽²⁾

(1) Bloody Mary: ماري الدامية، كوكيتيل إنكليزي من الفودكا متبل
حسب الأذواق بالفلفل والثايسكو والملح ومزوج بعصير الطماطم أو
عصير الليمون...

(2) وليم وردزورث William Wordsworth (1770-1858) : من كبار
الشعراء الانكليز، ساهم مع صمويل تيلر كولردج في ظهور العصر
الرومنطيقي في الأدب الإنكليزي.

مُسْفَرَةٌ بجلد العجل، ومن طرف إيتيل، ربطةٌ عنق من كريب الصّين ذات انعكاسات متموّجة.

رغم أنّ غريغور يملك عدداً كبيراً من ربطات العنق ولا حاجة له بوزدزورث، فإنّه لم يُبدِ سوء مزاجه خلال السهرة: ألا ينسم دائماً ليس أمراً استثنائياً ولكنه، عند اللّزوم، يعرف كيف يظهر في مظهر اجتماعي قبل أن يلجأ، عندما يحين الوقت، إلى معايرة زمنيّة دقيقة، مستأذناً في أسرع وقت ممكن ولو أنّه يتأخّر ما يكفي من الوقت لكي لا يخطر بالبال أنّه ملّ. اللّحظة الوحيدة التي دفأت قلبه قليلاً: عندما رافقته إيتيل حتّى باب الخروج فيها كان نورمان، مشيحاً بوجهه، يحدّد مهضّماته المريعة، وعقدت حول رقبتة ربطة عنقه الجديدة مازحة وقد تكون ثملة بعض الشيء. ورغم كرهه، حتّى معها، للملامسات الجسديّة- ورغم الخوف العنيف الذي لا يُكبت والذي داخله لحظة من أنّها بصدد خنقه-، فوجئ بكونه يجد ذلك ممتعاً. انتصاب صغير، غريغور؟ هيا، ولو مرّة.

عندما عاد إلى والدورف، وربطة العنق في رقبتة، ووزدزورث تحت ذراعه، وجد في بريد المساء ردّ ابن

مورغان على رسالته. وتتضمن فاتورة بـ 684.17 دولاراً كفوائد القروض التي منحها أبوه، مشفوعةً بأجل تمنيات الوريث. لم يعد ثمة ما يؤمل من هذا الناحية إذن، والعام الذي سيأتي سيكون حرجاً.

في انتظار أن يسفر الوقت عن وجه أفضل، سوف يعبر غريغور أياً ما شبه خاوية، عقيمة بخلاف المعتاد بالنسبة إلى رجل لم يُر قطُ حاملاً. ينام قبل الأوان، ويصحو بعد الأوان، ويمرّ بانتظام أقلّ إلى المكتب، وإن حضر كان لا يغادر كنبته السوداء. في أوقات فراغه، ما يُسمى الأوقات الضائعة، وقد بدت له كلّ أوقاته كذلك في الواقع، يتصور أفكاراً متفاوتة حول دفع الأجسام المائعة، ويتخيل عدة مشاريع لا يلبث أن يتركها - مقياس دوران سيارة، مُطلق مدّ عالٍ مفاجئ أو مركبة هوائية بلا جناحين. وتتمثل هذه في متوازي سطوح على شكل مطبخة غاز، يمكن أن تدخل أو تخرج من الشباك عند الحاجة. قد تتزع منا هذه الفكرة ابتسامة إن كان لنا مزاج لذلك، إذ يبدو لأول وهلة أنها لن يكون لها أبداً تبعات. والحال أننا سوف نخطئ لو ابتسمنا: سوف تعرف بعد خمس سنوات نجاحاً باهراً في

شكل طائفة ذات إقلاع وهبوط عموديتين، ولكن فات
الأوان بالنسبة إلى غريغور رغم التسجيل الذي قام به آلياً
بخصوص تلك البراءة.

وغريغور، على أية حال، لم يعد يبدو مؤمناً بكلّ
هذا. رغم مجده الصّغير ونجاحه المجتمعيّ، فإن تعاقب
الحيات قاده لأوّل مرّة إلى ألا يرغب في فعل أيّ شيء،
هكذا، لم تُعد الحياة سوى قاعة انتظار طويلة، لا أثر فيها
حتّى لمجلّاتٍ مدعوكّة على منضدة واطئة ولا نظراتٍ
هاربة يتبادلها المرضى.

دائنوه، هم أيضاً، ينتظرون. كان غريغور يميل دائماً إلى نسيانهم وكأنهم غير موجودين، هم ينتظرون منذ زمن طال إلى درجة أنهم هم أنفسهم ما عادوا واثقين جداً من وجودهم. وكأنّ شخصيّة مشهورة وعامة بشكل عالمي، حتّى وإن اختلف الناس حولها، تُحيل شخصهم الفقيرة الخاصّة إلى شيء ضئيل، وتمنعهم من الظهور للمطالبة بحقّهم.

وبفعلٍ انقلابيٍّ، ضمن فكرة عظمته التي تعلو على القوانين، قد يكون غريغور آل به الأمر إلى اعتبارهم في الواقع مدينين له، وتحوّلت سندات قروضهم في نظره إلى شهادات نباله، لها من الشرف ما يسدّد بسخاءٍ ديونه: من هذا المنظور يصبح مثيراً للشفقة، وحتّى من غير اللائق،

أَنْ يُؤَكِّد الدَّائِنُونَ حَقَّ قَهْمِهِمْ لَكِي يَسْتَرْجِعُوهَا. فِي تِلْكَ
الْأَثْنَاءِ كَانَتِ الدَّيُونُ تَتْرَاكُمُ، وَتَنُمُو. وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ، كَانَ
الدَّائِنُونَ لَا يَفَكَّرُونَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ، لَا بَلْ كَانُوا يَفَكَّرُونَ فِي
الْأَمْرِ أَقْوَى فَأَقْوَى: لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُ سِوَى قَذْحَةِ كِي يَنْقَلِبُ
كُلَّ شَيْءٍ فِي الْأَتَّجَاهِ الْمَقَابِلِ.

وَسَتَكُونُ قَضِيَّةٌ بَائِسَةٌ لَضَرَائِبِ مَحَلِّيَّةٍ، مَبْلَغُ زَهِيدٍ رُجَّحَ
أَنْ غَرِيغُورَ اعْتَبَرَهُ غَيْرَ جَدِيرٍ بِهِ، هُوَ الَّذِي سَيُمَثِّلُ تِلْكَ
الْقَذْحَةَ الْمُؤَسَّفَةَ: قَادَتِهِ آلَةُ الْإِجْرَاءَاتِ إِلَى أَنْ يَكُونَ مَطْلُوباً
أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ كَأَيِّ مَدْنِيٍّ. وَبِمَا أَنَّ مَصْلَحَةَ الضَّرَائِبِ،
وَهِيَ لَيْسَتْ شَخْصاً مَادِّيّاً، تَدْخَلَتْ، فَإِنَّ الْقَانُونَ بَدَأَ
مُعْطِياً الْفِكْرَةَ وَالْمَثَالَ وَالتَّرْخِيصَ لِلْخَوَاصِّ بِأَنْ يَعْرَبُوا
عَنْ مَطَالِبِهِمْ. وَمِنْذَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، تَكْتَفِ كُلُّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ
فَائِئِقَةٍ دُونَ أَنْ تُصْلَحَ الْأُمُورُ: اتَّضَحَ أَنَّ غَرِيغُورَ مَعْدِمٌ
أَكْثَرَ مِمَّا نَتَخَيَّلُ، مِمَّا يَتَخَيَّلُهُ هُوَ نَفْسُهُ، لِأَنَّ مُحَاسِبَهُ لَمْ يَجْرِ
قَطُّ عَلَى مَصَارِحَتِهِ. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَرَّرَ لَا فَقَطْ بِأَنَّهُ مَا عَادَ
يَمْلِكُ شَيْئاً، وَإِنَّمَا أَيْضاً بِأَنَّهُ مَدِينٌ بِكَمِّيَّةٍ مَهُولَةٍ مِنَ الْمَالِ
لَعَدَدٍ مَهُولٍ مِنَ النَّاسِ، مِنْ بَيْنِهِمْ حَائِكُونَ، وَصَانِعُونَ
أَحْذِيَّةً، وَصَانِعُونَ أَقْمَصَةً، وَمَعْمُونُونَ بِالْأَطْعَمَةِ، وَبَاعَةٌ

أزهار ومزودون آخرون، دون ذكر جيش من المتعهدين الفرعيتين، ولا على وجه الخصوص والدورف أستوريا، الفندق الذي يعيش فيها عيشة أبهة، بالذنين، منذ سنين.

أعرف أنّ غريغور منفرّ، كربه إلى حدّ يدفع المرء إلى القول إنّهُ لم يَنْلُ سوى ما يَسْتَحِقُّ، ولكنّ رغم ذلك. ها هو بلا فلس مهتّد بالسّجن في وقت كان فيه إديسون ووستنغهاوس وماركوني والآخرون، بعد أن استغلّوا أفكاره التي حصلوا عليها بأثمان زهيدة إنّ لم يكونوا سرقوها في وضح النّهار، يزدهرون في مشاريعهم ويكسبون أقصى المبالغ. لم يكفه أنّه أفلس، بل كان يرى بمرارة أنّ عدداً من المؤسسات، التي لا تعيش إلّا على اختراعاته، من التّيّار المتناوب إلى الاتّصالات اللاسلكية مروراً بالأشعة السّينيتية، تتطوّر بأرباح دون أن ينجي أثراً لدولار واحد. إنّهُ أمرٌ غير مشروع ولكنّ غريغور، بمهارته التي نعرفها لديه في التلويح بالمعجزات، سوف يتوصّل إلى الخروج من مأزقه بإجراء جولة لدى واسعي الثراء. مائة ألف دولار من هنا، مائة وخمسون ألف دولار من هناك، جمع ما يسدّد به معظم ديونه، ولمَحْوَ ما تبقى،

باع أرض لونج آيلند، حيث يرتفع برجه الذي لم يكتمل.
وكان لزاماً عليه أيضاً أن يُراجع قليلاً نمط عيشه وينحو
به إلى الانخفاض فيغادر والدورف إلى فندق السانت
ريجيس، حيث نزل بالطابق الرابع عشر- الذي لا يقبل
القسمة على ثلاثة، إذ لم يُعد يملك أسباب فرض نزواته-
وهو أمر ليس سيئاً بالمرّة.

في الوقت نفسه، كان برج لونج آيلند مع ذلك قريباً من
الاكتمال إلى الحدّ الذي صار معه مريباً في نظر الجيش إذ
هدمه بعد ستة أشهر، معتبراً إياه وكرّ جاسوسيةً محتملاً،
لا سيّما أنّ الولايات المتحدة دخلت مؤخّراً في حرب
وليست أيّ حرب، ليست كالمرحلة الصّغرى مع إسبانيا
قبل عشرين عاماً. حرب عالميّة بكلّ بساطة، أي قاتلة،
وهي تدور خاصّةً في البحر، لم تحنّ الساعة بعدُ للقصف
الجوّيّ، ولو أنّها قريبة: كانت الغوّاصات الألمانية، وهي
تُغرق كلّ يوم خمسة وثلاثين ألف طنّ من أسطول الحلفاء،
قد بدأت تطرح مشكلاً حقيقيّاً.

وهو يقرأ في الصّحف أنّ هيئة الأركان كانت يائسة من
العثور على وسيلة للكشف عن تلك الغوّاصات، تذكّر

غريغور، وكان دائم اليقظة، فكرة من أفكاره القديمة. حكاية غامضة عن موجات ثابتة، ذات دفع جويّ، وإشعاع وأنوار لاصفة، بدت له قادرة على حلّ المشكل الحقيقي، فأسرع بطرحه على هيئة الأركان. رفعت الهيئة بلا استثناء عيونها إلى السماء إذ رآته، ثمّ ابتسمت له في أدب وأكدت له أنّها ستكاتبه. بعد خروج غريغور، اتّفقت على رفض نزوة هذا «المشعبد» الجديدة، مفضّلة أن تجهل عنها كلّ شيء. سوف ننتظر حرباً عالمية ثانية، بعد الأولى، كي نجد أنّ هذه الفكرة في الواقع ليست سيّئة ما دامت ستحوّل إلى وسيلة دفاع كونية، ونعني بها ببساطة الرادار. في الواقع، قال غريغور، عندما عاد في صباح الغد، إنّ شئتم عندي فكرة أو اثنتان أخريان. تقوّست أكتاف هيئة الأركان، المنهارة، لدى وصوله قبل أن ترتفع وهي تستمع إليه. هو شيء جيّد فعلاً، راح يشرح، آلة طائرة بلا طاقم، ولا أجنحة، ولا محرّك، يمكن التّحكّم فيها عن بعد وإرسالها لإلقاء قذائف في أيّ بقعة من العالم، في أبعد مكان نريد. جيّدة، أليس كذلك؟ تطاولت الأنوف معاً أمام عرض هذه الأداة غير المناسبة، والمستبعدة الحدوث والتي لا مستقبل لها- رغم أنّها صارت ما نسمّيه اليوم

صاروخاً، وصار استعمالها مألوفاً لدينا. سنفكر، قالوا له، وسنخبرك. حسناً، قال غريغور، لديّ أيضاً تصميم بارحة تتصرّف كإنسان آليّ إنّ كان هذا يعنيكم، ألا يغريكم؟ ولكنهم كفّوا حتّى عن سماعه، كانوا ينظرون إلى وجهة أخرى، بعضهم يمسّدون رؤوسهم وهم يشعلون السيجار، في انتظار أن يتعب وينصرف في النهاية.

هو منقر، وله عدّة عيوب ولكنّه ليس غيبياً. عندما رأى غريغور أنهم لا يستمعون إليه ولن يسمعوا، بدا أنّه يتخلّى عن نيّة اقتراح نتاج فكره، ويستغني عن حماسه. كانت مساعدته تلاحظ أنّه يغيّر حياته اليوميّة بشكل محسوس، كأنّها اقتنع بالعطالة، وعلى أيّة حال عمّا قريب لن يكون بوسعه دفع أجرتيهما. صار أقلّ مواظبة على المكتب والمختبر، يذهب غالباً ليجرّ رجله في محطّة غران سنترال، رغم أنّه لا ينتظر أبداً أيّ قطار يركبه. وصار يعود بأكثر انتظاماً، في الحقيقة كلّ يوم، إلى برايان بارك ليغذي حيواناته الدائمة ويلجأ حين يطرأ مانع، لتغذيتها بدلاً عنه، إلى خدمات مجانيّة لساع من ويسترن يونيون كان حاز وده لأنّه هو أيضاً كان يربّي، في أوقات فراغه، حماماً زاجلاً.

الحمامة، مع ذلك.

الحمامة جبانة، مخادعة، قدرة، باهتة، غبية، خاوية،

دنيئة، غير مجدية.

لا تحرك الشاعر أبداً، غير عاطفية بالمرّة، الحمامة التافهة

وصوتها الأخرق. تحليقها الشبيه بنعارة. نظرتها الصّماء.

نقرها العبثي. رأسها المنزوع المخ الذي يحركه تراوَح

محزن. ترددها المخجل، وحياتها الجنسية المكذّرة. قدرها

المنذور للتطفل، غياب طموحها، وبطلانها العطن.

ليست كعصفور الدّوريّ الذي يملك سحراً، ولا

كالشّحرور الذي يحسن الصّداح، ولا كالغراب الذي لا

يَعدم وسامة، ولا كالعَقَق الذي له أسلوب خاصّ، هي

أفزع من العُقَاب الذي له على الأقلّ هدف في الحياة، في

مثل شهوانية الجرذ، وأصالة النعرة، أقل أناقة من دودة،
وأغبي من غول الأرض^(١).

نقتل حمامة دون إحساس بالذنب كما نسحق
صرصوراً، ومن الخطأ أن نمتنع عن ذلك. إما كسلاً أو
احتراماً للذات، يمنع المرء نفسه من ركلها برجله إلا إذا
رام التدرّب، وحتى في هذه الحالة فهي ليست أهلاً بها،
لأنه لا يريد أن يخاطر بتلوّث حذائه. ولا يعترض أحد
عليّ بأنّها، كزاجلة، قدّمت بعض خدمات وقت الحرب،
فذلك من حسن حظّها أن وجدت دوراً ضئيلاً، دور
ميكانيكا طائرة.

يا للحمامة القذرة، لا تصلح حتى للأكل، مُقرّزة في
مهدّها ذي حبات البزيلة الطحينيّة، ورغم ذلك فهي
التي بصدد أن تصبح طبق غريغور المفضّل، والوحيد عمّا
قريب، فقد آل الأمر بالمخترع إلى التّغذي حصريّاً، وحيداً
في غرفته الصّغيرة، بأبيض^(٢) الحيوان الذي يحدّد عظم

(١) Catoblépas: حيوان أسطوريّ عند الإغريق والآلّين، يشبه الجاموس
الأسود، ذو رقبة صغيرة لا تقوى على رفع رأسه الثّقل، فإذا ما أفلح
كانت نظراته قاتلة.

(٢) لحم الصّدر.

ترقوته. غريب.

أجل، يبدو ذلك غريباً ولكن يُمكن أن نحاول التفهم،
يمكن أن نتخيل أن غريغور، حسب منطق مخصوص، إذ
يغذي الحمام فليس من المقبول أن يتغذى به في المقابل، بحق
لنا أن نفكر أيضاً بما أنه يحبّه حبّاً جماً، فلا بد أن يحبّه حتّى
النهاية. ينبغي أن نتذكر خاصّة أن شراء الحمام من المجزرة
لا يكلف كثيراً.

ذلك أنّ غريغور بالفعل، لم يعد يملك فلساً. إذا كانت إدارة السانت ريجيس قد قبلت أن تغضّ النظر عن الفواتير غير المدفوعة مقابل نقله إلى هذه الغرفة الأكثر ضيقاً، فلا سبيل بعدئذ لدخول مطعم الفندق. لا سبيل أيضاً لمواصلة تعهّد المختبر ولا المقرّات الإدارية. إذا كان غريغور يحرص على مواصلة النشاط، ولو في الظاهر، فإنّه استعاض عن عمل محاسبه بخدمات محدّدة يطلبها من مكتب إدارة، وعن مساعدتيه بهاوي تربية الحمام ساعي ويسترن يونيون الشّابّ، القليل الصّرامة في طلب مستحقّاته، كان يشغله نصف الوقت مستخدماً جوالاً.

بعد أن منحه آل أكسيلرود ما يسمح له بتجهيز مكتب في خلوة بفندق بلاكستون، سيحاول غريغور

أن يستغلّه لبيع بعض مشاريع آلات جديدة عن طريق المراسلة. ولكنها كان يبدو بمرور الوقت أنها إنما صُمّمت لكي يشغل وقته، ليس عن قناعة بل بالكَيْة ومحض عادة ابتكار. ضاغط سيول مطاطية. واقي صواعق بأنساق. سراج قاطرة. مولّد عنقي⁽¹⁾ محرّك بالماء. كلّ الأجهزة لها إرشادات، نلمس فيها أسلوب غريغور المتواضع، تمتدح طبيعتها المجدّدة بلّة الثوريّة، سهولة الاستعمال، عالية الأداء، باختصار، ذات تفوّق ساحق.

إلا أنّ تلك العمليّات، وغيرها كثير، لن تشهد تتمة. ولا يُعزى ذلك فقط، كما يلاحظ غريغور بأسف، لاستخفاف معاصريه. إذ يصادف أيضاً لدى الإنسان ألاّ تجري الأمور كما كانت من قبل، وأنّ الوضع يتخلّع. هنا وهناك، من خلال بعض التفاصيل وبشكل غير محسوس، نرى كيف يتلف الدّهن: كالماّدة. يحدث ذلك عبر ظواهر زيادة وظواهر نقصان: عناصر مأكرة ينضمّ بعضها إلى بعض - وسخ، غبار، فطريّات - فيما عناصر أخرى بالغة الأهميّة تتفتّت - بلى، إرهاق، تآكل. دون ذكر الصّدأ الذي

(1) Turboalterateur: مولّد كهربائيّ مكوّن من عنفة ومُنوّبة مُركبتين على محور واحد.

يهاجم الخلايا العصبية ويقرضها ويلتهمها مثل الذرات حيث تبدى آثاره في أنواع شتى من الإبطاء والإرهاق والتفكس والإهمال والعشوائية. هو مسار بطيء، مُلتَوٍ، غير بادٍ في البداية وأحياناً، فجأة، يتجلى بادياً للعيان.

يحدث هكذا أن تتولد في ذهن غريغور فكرة لم تخطر، في ظنه، ببال أحد حتى تلك اللحظة. هذه طريقة جريئة تتمثل في إزالة الغاز عن النحاس، بفضله، وبعد القضاء على كل فقايع الغاز التي يحتوي عليها، يمكن الحصول على معدن أكثر كثافة وبالتالي أجود. وبعد مساعٍ حثيثة، أمكن له عرض هذا التصميم الجريء على مصلحة بحوث العُدانة⁽¹⁾. ولما كان المهندسون منبهرين بسمعته، فقد فحصوها، ولكن ما لبثوا أن اكتشفوا أن غريغور، برغم صيته ككهربائي عظيم، لا يفقه كثيراً في علم المعادن. حدّدوا له موعداً، وبما أنهم يعرفون شدة حساسيته فقد احتاطوا كثيراً في طريقة التعامل معه، وتوخّوا حذراً شديداً ليشرحوا له أنّ منظومته الجريئة، رغم أهميتها القصوى، لا يمكن أن تتجسّد: إذ من الصعب أن

(1) Métallurgique: صناعة استخراج المعادن وتنقيتها.

نستخرج فقاقيع غاز من النحاس، لأنّه في النحاس، لو تعلم، لا توجد فقاقيع غاز. فليس من اللاطبيعيّ، أليس كذلك، حاولوا أن يشرحوا له بلطف، أنّ هذه المنظومة، لا أحد فكّر فيها من قبل. جمع غريغور أوراقه دون كلمة وانسحب ماسحاً شاربيه.

يحدث أيضاً أن يقدّم، دون أن يمضي بها إلى نهايتها، سلسلة براءات اختراع مرتجلة عن ميكانيكا السوائل فيُقبل تسجيلها في نوع من المجاملة وحتى كيوادر إشفاق. يصادف أكثر فأكثر أنّ الكشوف والمشاريع والتقارير والتّقديرات التي يحزّرها غريغور، حين يعرض خدماته الاستشاريّة على كلّ قادم، تقابل دائماً بالرفض. وبعض الشركات التي بصّر بعناد على إقامتها يتّضح فور إنشائها أنّها غير مجدية. كلّ ذلك، لا يعود عليه في سبب الأعوام وأحسنها إلّا بفتات، لا يفيد على أيّة حال إلّا في تسديد بعض الدّيون المعلّقة ودفع أجرة السّاعي مرّة على اثنتين. مرّة على اثنتين لعملٍ في نصف وقت: استياء السّاعي، حتّى وإن طلب القليل، إذ جعل يُطالع عروض الشّغل. ولئن بدأ غريغور منذئذ يُقلّل من مخالطة الناس،

بصرف النظر عن ضعف إمكاناته، فلأنَّ رغبته تضاءلت. ومنذ إقرار قوانين منع الكحول كان يكره عواقبها: لا لأنه يحبُّ الخمر فهذا ليس من طبعه، بل لأنَّ الجوّ الذي استقرَّ لم يعد يناسب ذوقه. ما سوف يُدعى فيما بعد الأعوام المجنونة - كحول خشب في خمارات سرّية، فتيات متحرّرات ورقصات شارلستون⁽¹⁾. أل كابوني⁽²⁾، أل جولسون⁽³⁾، وانهيارات مالية وأبناء ذوات - كلّ ذلك يصدمه إن قليلاً أو كثيراً. وبعد أن صارت صحبة الرجال، ناهيك عن صحبة النساء، صعبة، لم يبق لغريغور في الواقع سوى الحماهم.

إزاءها، كان غريغور يعلو درجة، فقد استبدل دور

(1) Charleston: نوع من الرقص الصّاحب يستمدّ اسمه من مدينة شارلستون بكارولينا الجنوبيّة، ظهر في الولايات المتّحدة عام 1920، قبل أن ينتقل إلى فرنسا عام 1925 مع النّجمة السوداء جوزفين بيكر (1906-1975).

(2) Alfonso Capone (1899-1947) صعلوك من أصل إيطاليّ. أشهر قطاع الطّرق في القرن العشرين. كوّن ثروة في تجارة الكحول زمن الخطر في عشرينات القرن الماضي، وساهم في انتشار الجريمة المنظّمة، وأعطى سمعة سيّئة لشيكاغو كمدينة خارجة عن القانون.

(3) Al Jolson (1886-1950): مغنٍّ ومثّل من أصل ليتواني. من أكثر فنّاني المюзيك هول شعبيّة في أمريكا خلال القرن العشرين.

الحاظمة بدور المغذية: لم يعد يكتفي بتغذية الحمايم، بل صار يفكر في علاجها. وبعد أن تزود بمعلومات دقيقة عن عالم آكلات الحبوب، ألمّ بعاداتها وتقاليدها، وسلوكها وخاصة بتكوينها المرضي. كان يغدو وييده حقية الإسعافات الأولية ليذرع دون ملل الشوارع والمرافق والحدائق العامة، معتنياً بتلك الحيوانات، وسرعان ما صار يتفطن للأعراض المنذرة بالخطر في سلوكها- كآبة، نحول، سعال يصحبه صفير، التهاب مفاصل أو عرج، إسهال وتصلب الرقبة- لكي يهب لنجدها في عين المكان. تقويم بالحصص، حقن بالإبر، تطهير، تمسيد، كان يقدم العلاج اللازم لكل حالة، وإن كان يمتنع عن التدخل في حضور أعراض أكثر خطورة: مثلاً عندما تشرع حمامة في المشي مُتَهَقَرَةً، أو تخطئ الهدف فلا تستطيع التقاط حبوبه، وغريغور يعرف كيف لا يردّ ذلك السلوك إلى سذاجة النوع مضرب المثل- والتي يُنكرها على أية حال- بل إلى إصابة بمرض الصرع⁽¹⁾، داء نهايته محتومة ولا حلّ له إلا

(1) Paramyxovirose: نوع من الوباء يصيب الحمام، من أعراضه اضطراب الجهاز العصبي المركزي والإسهال.

بالقتل الرحيم - وهو ما يرفضه على أية حال.

ثم جالت بذهنه عفو الخاطر، ما دام الأمر كذلك، فكرة الانتقال من العلاج المتنقل إلى الأخذ على عاتق المؤسسة، وتأسيس مصحة للحمام. عندئذ سوف تُطرح مشكلة المقر. بما أنه يعلم أن إدارة السانت ريجيس ستُظهر تحفظاً شديداً على هذا المشروع، فليس بوسعها أن تُجبر لمدة طويلة عدداً كبيراً من المرضى في غرفته. اختار ألا يقبل سوى مريض واحد في الآن نفسه، وحالة بحالة، للمتابعة الطّبيّة القصيرة المدى أو الإسعاف الطّارئ. لهذا الغرض استأجر، من بائع طيور قرب الفندق، مَطيّرة تكون بمثابة قاعة انتظار حيث سينزل مرضاه قبل الكشف عليهم. في تلك الأثناء كان يواصل دراساته النظرية والتطبيقية، مطوّراً مهارته في علاج الأجنحة المجروحة والأرجل المكسورة، والغنغرينة وتساقط الريش، وصار يحذق تشخيص الجدريّ من أوّل نظرة، والتعرّف على النّقرس، والكشف عن الطفيليات الجوفية، والتّمييز بين الانتفاخ الرّئويّ وبلع الهواء، ولا يلجأ إلى الأطباء البيطريّين إلّا إذا عجز عن تشخيص مرض بالغ الدّقة أو الخصوصية.

ولكن شغفه لم يقنع بهذه الحركة. فبما أنه كان لا يني يجد صعوبة في مفارقة مرضاه، قرّر أن يتحدّى القانون الداخلي للفندق ويحتفظ بمجموعة صغيرة في غرفته، حيث بنى مسبقاً سلسلة من الأوكار بواسطة الخيوط والأسلاك الحديدية والقطن، قبل أن يُخزنها. وفي إحدى الأماسي، في ساعة متأخرة، استطاع أن يغافل حارس الليل بخدعة، ونقل خفية صندوقاً كبيراً مغطى يحوي ستة طيور مصابة بمرض مُزمن حتى الطابق الرابع.

لن نكون في البداية سوى فرقة صغيرة متبدّلة، لا تزيد عن ستة، يؤويها عنده. ولما كان يتغيّب أحياناً لأداء بعض الشؤون التي بقيت له في مكتب بلاكستون، فقد عهد بالحيوانات إلى خادمةٍ غرف شرى صمتها بضمن بخس، وكلفها بأن تسهر عليها وفق تعليمات محدّدة. ولكنه لم يقنع بذلك وما لبثت الأوكار أن تضاعفت إذ إنّ المرشّحين العليلين لا ينقصون. وعمّا قريب سوف يكون عدد المقيمين خمس عشرة حمامة جريجة، ثمّ عشرين، فثلاثين حتى صارت الغرفة لا تتسع للعناية بها، ما دفع غريغور إلى تكليف امرأتين أخريين من خادמות الفندق لتنظيم

أدوار حراسة عند مخدعها. كل تلك الحمايم سوف تهدل بصوت مسموع، وبدأت روائح غريبة تنتشر في طابق الفندق، وجعل الزبائن يتذمرون فاستدعت إدارة السانت ريجيس غريغور وأمرته بوضع حد لمصخته الطّيرية.

أغلقت المؤسسة، وتمّ تعقيم المحلات، واضطرّ غريغور إلى أن يقنّع بوحده في البداية، حاصراً علاجه في زيارات يومية إلى المطيرة، التي تموّلت إلى مستوصف حيث يجيء بانتظام بمرضى جدد ويعمل على شفائهم. ولكن الأمر لم يعد كما كان من قبل. كان يخرج من هنا كئيباً دائماً، ولكي لا يعود إلى غرفته الخالية بالفندق ويغيّر أفكاره، كان يجوب محطة غران سنترال - أو، كما هي الحال هذه الظهيرة، يقصّ شعره عند الحلاق.

مقصوص الشعر بجدة، حليق الذقن عن قرب،
والشاربان معدّان في شكل شبه منحرف دقيق، غادر
غريغور بعد ساعة حانوت حلاقه. وكان ملاصقاً لقاعة
حلاقة للسيدات حيث امرأة، وقد مرّت الموضة من هنا،
تكنس على الرّصيف شعوراً طويلاً مقصوفة، شكّلت
كدساً متحرّكاً ومُلتبساً من مناطق بنية وشقراء وصهباء
وسوداء متشابكة، ونادراً ما تكون بيضاء أو رمادية. هناك
أبصر غريغور حمامة جديدة تضلع بإعاققتها وسط المنطقة
الشّقراء حيث تاهت.

فحص غريغور الحمامة. كانت شعرة طويلة في لون
البلاتين أو الأشقر البندقيّ قد التفت حول قائمتها
السفلية اليمنى، ثمّ تورّطت اليسرى بدورها، فإذا الحمامة

مُعْطَلَة الحركة. في كلِّ حركة تأتيها، تزداد الشعرة توغلاً في الحراشف التي تغطّي رجليها، فتشكّل رباطاً لا ينفكّ يضغط ويكبس الدّورة الدّمويّة. مشلولاً هكذا، كان الطّائر يحاول في دفعات أن يستعيد عبثاً طيرانه، عاجزاً عن الانطلاق بخفق جناحيه فقط، كمثّل محرّك مزدوج محروم من عجلات الهبوط.

وإذا كان الحمام، أحياناً، يُظهر عناداً غيبيّاً حين يلتقطه غريغور بكلِّ عطف، فيقاوم بالمتنار والمخالب حدّ جرحه، وإذا كان يتخبّط مثل عجوز تريد مساعدتها على قطع الطّريق والحال أنّها لم تطلب منك شيئاً، فإنّه لم يجد صعوبة في التقاط هذه الحمامة. صاراً منقارها بشريط مطاطيّ ليَجبرها على السّكوت ويخفيها تحت جناح سترته الرّدنغوت، عاد بها خفيةً إلى السّانت ريجيس متحدّياً قانون الفندق.

ما إن دخل الغرفة حتّى أعدّ حماماً لرجلي الحمامة في محلول من الماء الفاتر والمُطهّر. تركها تنتقع وأحضر عُدّة الجراحة المناسبة: مشرط، وملقط حواجب، وعود أسنان. بعد ثلاث ساعات، قدّر أنّ هذا الحمام كان كافياً لتطرية

اللحم، وبحث عن الاتجاه الذي سوف يبسط الشكال.
مرر عود الأسنان بين الرجل والشعرة المغروزة، قطعه
بالمشرط مَقطعاً مَقطعاً، وأفرغه تباعاً بواسطة الملقط.

عشرون دقيقة كانت كافية لهذه العملية التي تستوجب
بعدها، قَدْر غريغور، راحة بيومين أو ثلاثة لكي تعود
الحمامة كما كانت خفيفة الحركة. ولكن في انتظار ذلك،
جعل يتأملها. يتأملها طويلاً. يمعن في تأملها طوال
الساعات التالية، ورغماً عنه تقريباً، حتّى أنّ تأثير موديل
وشكل غريبين بدا أنّه يستحوذ للوهلة الأولى عليه. كان
افتناناً يقظاً، أخذاً، حسن الالتفات، مجدداً للشباب،
جهداً دون نزع الفولتية لم يشعر به من قبل مع أيّ كان، إلى
الحّد الذي تساءل فيه عند آخر النهار ما إذا كان نوعاً من
العاطفة لم يعرفه إلا سماعاً دون أن يُعيره انتباهاً حتّى ذلك
الحين، شعور صعب التّحديد، كيف يجد العبارة الصّائبة.
هي حالة، لتتجرّأ على هذه اللفظة، حالة عشق.

هذا الطائر هو في الواقع أنثى ذات ريش أبيض صافٍ،
وجناحين مخطّطين في نعومة بلون رماديّ فاتح، ورقبة
تكاد تتموّج بلون خُبّازيّ. منقارها القرمزيّ منقّط بأصفر

زعفرانيّ، ورجلاها متبايتان بين ورديّ صوّز ورماديّ المطر، فيما ذيلها التّاصع ينثني قليلاً على طريقة طاووس. لا شك أنّ نسبها أجنبيّ لأنّ عينيها، المدوّرتين في العادة لدى آكلات الحبوب، مغبوتتان برموش، وتلك حالة فريدة. نبرتها المبحوحة في عذوبة، مشيتها الأنيقة الوجلة وطريقتها في حني رأسها إلى جانب، مُخفية نظرة حنين، تكبس على قلب غريغور وتدفع بها يشبه الدّموع إلى عينية. علامة ضعف لديه، انبعاث أفكاره عن العظّمة أم هي بداية خرف: هذه الحمّامة تذكره بأقوال المنوّرين الذين كانوا زمن مجده الفتّي، يزعمون أنّه ظهر بينهم على جناحي حمّامة، دون أن يتوصّل فكره العقلائيّ إلى طردها. ثمّ نتأّ في عقله الخصب على الدّوام أنّ بإمكانه إقامة ما يشبه حواراً، ليس أقلّ منطقية من حديثه مع سكّان المريخ في الواقع.

اعتنى بالحمّامة كامل الوقت طوال أسبوع، وبعد أن شُفيت من إعاقاتها الحركيّة، كان عليه أن يُطلقها مُتمثلاً بذلك لقانون الفندق. غير أنّ الحمّامة، حتّى وإن شُفيت تماماً من مشكلة رجليها، ما زالت فيما يبدو عليلة، كثية

وَمُتَعَبَةٌ. صحيح أنه يمكن اعتبار أن تلك العلامات تُعزى إلى مجرد تماثل للشفاء ويكفي أن تودّع الحمامة للتقاهة عند بائع الطيور، إلا أن غريغور ينبغي أن يقرّ أيضاً أنه لن يحتمل ذلك. لقد بلغ تعلقه بها حدّاً سوف يتألم من جرّائه لو تخلّى عنها. في غفلة من الجميع وتحدّ للقوانين الفندقية، قرّر أن تُقيم معه في غرفته، وأن يعيش معها كما يعيش مع الخطيئة التي لم يظفر بها قطّ.

غير أن هذا الرّباط السّريّ لا يمكن له أن يستمرّ في حالة اندماج دائم، فما تبقى لغريغور من أشغال لا يزال يضطرّه أحياناً إلى الخروج - والحياة المشتركة، كما نعلم، تفترض أن تُهاتف ثلاث مرّات على الأقلّ الكائن المحبوب إذا ما ابتعدنا عنه. فلجأ من جديد، وبسرّية تامّة وبخشيش باهظ قياساً بضعف ميزانيته، إلى مديرة شؤون طابقه لكي تعني بالحمامة في غيابه. وإذا ما دعتّه مساع أو التزامات إلى التّأخّر، فإنّ مديرة شؤون الطّابق تتولّى الرّدّ على مكالماته اليوميّة السّتّ لتنقل إليه حالة الحمامة، مثلما تتولّى تغذيتها حسب حمية مُعيّرة، مختارات من الحبوب الطّرية والمتنوّعة مخزونة في الغرفة بغير انقطاع.

من بين التزامات غريغور، لم تَبَق سوى مآدب العشاء في بيت آل أكسيلرود، كناج وحيد من حياته الاجتماعية الرّاقية. وبما أنّ الزوجين لم يلبثا أكثر من بضعة أيّام كي يلاحظا عليه غرابته، وشروده، وانشغاله، فقد اضطرّ المخترع إلى تفسير ذلك بإيجاءات غامضة عن دخول مفاجئ لشخص في حياته، ولكنّ دون أن يجرؤ على الاعتراف بأنّه حيوان، وعياً منه بغرابة الظّاهرة. استبدّ سوء فهم بذهن إيتيل، فأظهرت في البداية اهتماماً مُتصنعاً، تبعه تهيج مُقنّع ثمّ غيرة صريحة تسرّت عليها بالبرود. ولما كان العاشق لا يستطيع أن يصمت طويلاً ولا أن يمنع نفسه من طرح ولعه بالتفصيل حالما يمكنه ذلك، أكّد غريغور أنّ موضوع عشقه ليس ما نسمّيه عشيقة بل هو تابع لفصيلة الحماميات، وهو ما أثار في إيتيل ارتياحاً، مرحاً في البداية، ثمّ جليّاً.

ولكنّ بما أنّ غريغور، بعد أن باح بما باح، لم يعد يحول نفسه عن ذكر المزيد من الأخبار، صار لا يشير مباشرة إلى الحمامة كحيوان مدجّن بل في عبارات خاصّة برفيقة آدميّة، وبما أنّه لم يعد يتحدّث إلّا عنها، ناب عن المرح

المرتاح لدى إيتيل انزعاج ثم نفاد صبر إلى أن عادت الغيرة إلى الظهور، بأكثر جلاء هذه المرة لأنها ملونة بعدم الفهم، والغم وحتى الازدراء، ومتوارية خلف برود أجلى - بما يُرضي أنغوس نير رضاء تاماً.

كان الشاب ذو الوجه المذعور في تلك الأثناء قد وجد لنفسه موقعاً أكثر استقراراً إلى جانب نورمان، منقشعاً من ظله ليحوز فرادته. لم يعد سكرتيراً فقط بل صار يشغل منصباً وسطاً بين الشريك والابن بالتبني، معزّزاً مكانته في بيت آل أكسيلرود دون التخلي عن فكرة إغراء إيتيل في النهاية، ولو أن اعتقاده ذلك لا يني يتضاءل يوماً بعد يوم. شيان صغيران تغيرا في الأثناء لدى أنغوس. الرّواتب التي يصرفها له نورمان مكنته في البداية، لشده اقتصاده، من أن يشتري بالدين سيارة جميلة مستعملة مغزلية الشكل ذات سقف متحرك، من نوع دويزنبرغ لها محرك بشامي أسطوانات مصطفة، سيارة مكشوفة ذات جوانب خضراء ووقاء محرك أزرق، وأجنحة عريضة بنية لحماية عجلات ذات دواليب مطاطية نظيفة وحواف وقضبان صفراء فاقعة. وذلك أفخر ما يُصنع وأغلاه، وقد أثقل

أنغوس كاهله بالديون من أجل هذه السيّارة الأكبر من حجمه. حتّى وإن لم يظهر ذلك في عينيه الأشدّ ذعراً بسبب التفقات، فقد سرّ بها كثيراً. كلّما أمكن له ذلك، وضع سيّارة الدّويزنبرغ تحت نصّرف إيتيل ليقودها في قضاء شؤونها. ولكنّها كانت ترفض في الغالب، وبما أنّ قوانين الحظر قد ألغيت، فالشيء الصّغير الثّاني كان إقبال أنغوس على الشّرب، بغير اعتدالٍ والحقّ يقال، كي ينسى هذا المأزق الغراميّ. كانت النظرة التي يسلّطها على غريغور لا تزال معادية بعنفٍ ولكنّها أيضاً ملتبسة نوعاً ما، ففي هيئته المذعورة، لا يبدو أثر ذلك عليه بشكل بالغ. أمّا نظرة غريغور إلى الحمامة، فهي لا تفتأ تشغل. ولما كانت صحتّها لا تزال فيما يبدو غير مأمونة، فقد كان يحرص على إعادتها إلى نشاطها بتنويع حِميتها الغذائيّة أو بالتّفسّح بها على ضفّة نهر هودسون وشواطئ لونغ آيلند، محاولاً أن يُقوِّمها بهواء البحر أو، حسب نظريّاته القديمة، بصدمات كهربائيّة صغيرة كان يُخضعها لها بواسطة مُولّدٍ قديم. لا بل إنّهُ نظّم لها، ذات صباح، عطلةً إذ عهد بها للسّاعي الذي يقيم أهله في الرّيف، مع قائمة من التّوصيات لا

تنتهي. صحيح أنه فارقتها مُكرهاً ولكن كل شيء يهون في سبيل تعافي الحمّامة، التي لن يأتيها غير المفيد من أسبوع في الهواء النقيّ. في ذلك اليوم، ألقى غريغور نفسه وحيداً منذ انتهاء الصّباح، وقضى أمسية حزينة وطويلة دون أن يغادر سكنه أو يتوصّل إلى العمل، وهو ما صار يؤدّيه بشكل متناقص، وحتى أن يقرأ الصّحف التي كان يورّقها دون أن ينظر إليها. كان يستعدّ لتناول العشاء وحيداً في غرفته خلافاً لعادته حين أرغمه خفق أجنحة متواصل إلى الالتفات نحو النافذة فإذا بها هي تضرب الزجاج ضرباً خفيفاً بمنقارها، وقد عادت بوسائلها الخاصّة مُنهكة. عندما فتح لها غريغور النافذة، كان قلبه يخفق.

في الأيام التالية، لم يبدو أن شيئاً تحسّن. كان الطائر يمتنع عن الأكل أحياناً، ويبدو عليه إرهاق شديد، مع لحظات غيبوبة تنشأ خلالها نوبات سعالٍ، خفيفٍ في البداية، ثمّ أجشّ ومتشنّج، منذرٍ بالخطر ومصحوبٍ بحمى مفاجئة. ورغم معارف غريغور، كان لا بدّ أن يلجأ إلى طبيبٍ يطرّي استقدمه على عجل. وبعد كشف طويل وجسّ، وفحص لعمق العين، وقياس للضغط وثلاث ضربات

بمطرفة لفحص الانعكاسات العصبيّة، رفع الأخصائيّ نظرة يائسة نحو غريغور وهزّ رأسه ببطء ليعلن عن تشخيصه. وعلى غرار مدام دو بومون⁽¹⁾، ومارغريت غوتيه، وجرميني لاسيرتو، وكلاوديا، وفانتين، وفرانسين الشهيرة بميمي⁽²⁾ وبطلات كلاسيكيّات أخريات، كان ينبغي وا أسفاه الإقرار بأنّ الحمّامة تَحْمِلُ كلّ أعراض السّل - وهذا المرض، في ذلك الوقت، ما كان له علاج.

(1) Jeanne-Marie Leprince de Beaumont (1711-1780): مربيّة

وصحافيّة وكاتبة فرنسيّة، من أشهر أعمالها «الحسناء والوحش».

(2) Marguerite Gautier، Germinie Lacerteux، Claudia، Fantine، (2)

Francine: بطلات روايات فرنسيّة كلاسيكيّة لفكتور هوغو وألكسندر

دوما الابن والأخوين غونكور.

بعد عشر سنوات، كان غريغور يلبس جوربيه قبل أن يسحب حذاءه من تحت السرير. لبسهما ببطء في تلك الهيئة الرّصينة التي يتّخذها أحياناً رجال في مثل سنّه حين يقومون بأنشطة مماثلة، تعبير جهم لولد عجوز وحيد، منظم، دقيق، معزول عن العالم ومُنكَب على مهمته.

صحيح أنّ جسده والديكور تغيّرا. انحسر الفضاء الفندقّي حوله إذ لم يعد له سوى غرفة بائسة تُطلّ على الفناء، وإذا كانت عاداته المستهجنّة لم تستطع إلا أن تتضاعف مع السّن، فإنّ حركاته صارت أكثر بُطْناً واضطراباً وأحياناً يشوبها ارتجاف خفيف. عندما يلقي نظرة عبر النافذة، لم تعد نظرته تقع على الشّسوع النيويوركي كما كان الشّأن من طابقه الرّابع عشر بالسانت ريجيس، الذي يسيطر على

المدينة كلّها لغاية النّهر. انتهت السّماء الكبرى المأهولة ببروق فوق خطّ السّماء⁽¹⁾. عبر زجاج نوافذ فندق نيويورك، حيث صار يقيم، لا يرى قبالة غير جدار بلا نوافذ، وخلفه، مغروزة على ركيزة ثلاثية القوائم، الحمامة محشوة بالقش.

عند موتها، دفنها في البداية خلال موكب خاشع. ثمّ ما لبث أن تدارك أمره، فأخرج جثتها وسلّمها إلى محنّط حيوانات وطيور. ولكنّ الحيوان، وإن يكن محنّطاً، كان لا يزال، حسب إدارة السانت ريجيس التي ضاقت ذرعاً، يجلب الطفيليات. محض تعلّة، لأنّ الأذية الأكثر إزعاجاً هي قوائم الحساب غير المدفوعة التي أدّت في النهاية إلى إشعار غريغور بضرورة إخلاء الغرفة.

اضطرّ إلى أن يُبدّل سكنه، عاماً بعد عام، ومن فندق إلى فندق، وكلّها موجودة تقريباً في المحيط نفسه ولكنّ برفاهٍ أقلّ كلّ مرّة بحسب هبوط مداخيله. نزل أولاً في بنسلفانيا، ثمّ انتقل إلى غوفر نور كليتون وبعدها حطّ

(1) Skyline: بانوراما المدينة، خطّ أفق اصطناعيّ ترسمه بنية المدينة في شمولها، وعادةً ما تُستعمل اللفظة في حضور ناطحات السحاب.

رحله هنا، في نيويورك، فندق أقلّ بريقاً، وأقلّ زبائن
ولكنّه أقلّ تكلفة بكثير، وخاصّة، أنّه يغضّ الطرف عن
طيوره التي كانت هنا، بالعشرات.

في سنّ السبعين، وحيداً في غرفته كالعادة، كان قد
أتمّ لبس ثيابه هذا الصّباح. رغم أنّ ثيابه منظّفة ومكوّنة
دائماً بعناية، فهي ما عادت تأتي من نفس الخيّاطين كذي
قبل - حتّى وإن احتفظ غريغور ببعض ما يرجع عهده إلى
زمن تألّقه، يتعهّدها بعناية لكي لا يلبسها إلّا في المناسبات
الكبرى، وإن ازدادت ندرة. من المائتي قميص لم يبق له
مثلاً إلّا نصف دسته، أمّا بقية ثيابه فقد تضاءلت كمّيّتها.
بعض تلك الأقمصة، المتهرّثة الأكمام، بدا عليها البلى
أيضاً حول الرّقبة، ما اضطرّ غريغور إلى أن يتعلّم إعادة
تثبيت زرّ مفكوك بنفسه، ويعزّز حاشية، ويكلّف خياطة
في الجوار بقلب رقبة قميص حينما يفرض التهرؤ ذلك.
بل إنّ القميص الذي لبسه بدا له ذا رائحة غريبة، ريح
خفيفة لغبار حامض ممزوج بزبدة زِنخة. وبما أنّ ذلك
القميص، رغم طول عهده، نظيف تماماً كما هو كلّ يوم،
تنهّد غريغور واستسلم للظنّ بأنّ تلك الظاهرة متأتية من

جسده هو، ومن إرهاقه وتعكره.

لبس جوربيه بتدقيق مفرط. جوربان طويلان، في نصف طول جوارب النساء، يصعدان حتى الركبة، ويستوجبان تقنية بعد تشمير السروال: وسَط غريغور بدقّة طرفيهما وفق اصطفاف أصابع قدميه لكي يتكيفتا من بعد مع عقبيه. ثم كان عيه أن يرفعهما بعناية على طول كلّ رجل دون تجميد. ثم جعل ينتعل حذاءه، عاقداً ببطء رباطة في شكل ضفيرة مضاعفة. ليس من الأناقة أن يُضاعف الضفيرة، غريغور لم يكن يفعلها من قبل، ولكن إذا لم يكن ذلك أنيقاً فهو أكثر ضماناً. ذلك يُجنّب غريغور، إذا انفكّ رباط في النهار، أن يُضطرّ إلى الانحناء لإعادة ربطه - مثل تلك الحركات، وهو ما بات يزداد إحساساً به، يُجهده.

تساقط شعره وصار قليلاً ورمادياً، وانتهى به أمره إلى خلق شاربیه عندما لاحظ أنّها لا يزالان أسودين مثل حاجبيه، ولم يكن متفنجاً كي يصبغهما. غير أنّه لا يزال ناعلاً، يقظاً، خفيفاً ولو أقل مرونة، ولكن بنيتة الجسدية مرتبطة أغلب الظنّ بحمية غذائية مُلزمة إلزاماً شديداً. فإذا كان صحيحاً أنّ مطعم نيويورك ركون جودة مطاعم

الفنادق السابقة، فإنّ المسألة لا تُطرح من هذه الزاوية إذ إنّ غريغور لا يمكن أن يرتادها. لم يعد له ما يكفي من المال ليطعم بصفة طبيعية، إذ صار يتغذى بالحليب الساخن وبعض المرطبات الجافة، التي يحصل عليها في علب معدنيّة مطليّة، من التّوع نفسه دائماً، ويحتفظ بها بعد إفراغها. بعد أن وافق مسيرو الفندق أن يُبَتّ نجار رفوفاً في أحد جدران غرفته، وضع عليها ما تبقى له من ممتلكات في تلك العلب المرقّمة بدقّة. أمّا الجدار المقابل فكان مشغولاً بأقفاص تُجبر نزلاءه، صنعها النّجار نفسه الذي أنجز أيضاً، حسب تخطيطات غريغور، دُشّاً صغيراً مزوّداً بستائر، تستغله كلّ حمامة ثلاث مرّات في الأسبوع. في الأشهر الأولى التي عقيت نزوله بنيويورك، كانت إيتيل تزوره بين الحين والحين ولكن سرعان ما صار غريغور، وله من الكبر ما لا يحتمل معه أن ترى عن قرب تطوّر سقوطه، يرفض زياراتها. لم يعد يلتقي بها إلّا في الخارج، في الحدائق الصّغيرة العامّة تحديداً حيث تُرافقه، وتشتري بنفسها أكياس الحبوب فيما كانت أحاديثهما تتدهور.

لم تلفظ أحاديثهما أنفاسها إلا في السَّجَلِ الغراميّ-
مع أنّه لم يرَ النّور قطّ بشكل صريح- لأنّ غريغور ظلّ
لا ينضب له مَعين حينما يدور الكلام حول مشاريعه،
مستعيداً حكايته القديمة عن طاقة جديدة ما عاد أحد
يرغب في التفكير فيها. كان يؤكّد باستمرار، لها ولمن يريد
أن يسمعه- ولو أنّ من يريدون الاستماع إليه في الظاهر
في تضاؤل-، أنّه طوّر فكرته تلك عن مصدر طاقة غير
مُسبوق، متوافر في اللّيل والنّهار في كلّ الفصول، وصناعته
تُتم تحويله ستكفّل بهما آلة بسيطة كتحتية الصباح. كانت
إيتيل، وقد صارت سيّدة عجوزاً، تركه يتحدّث، الجميع
يتركونه يتحدّث مثلما يتركونه بتسامح ينشر في مجلّات
دنيا، في حدود النّشر على الحساب الخاصّ، ويتدخّل خفيّ
من نورمان، رسوماً تخطيطيّة لمشروعين آخرين: نظام
لاستخراج الكهرباء من ماء البحر ومحطّة حراريّة جوفيّة
بالبخار.

إلا أنّ تلك الأفكار، وغريغور واع بذلك، ليست
سوى استعادة لمحاولات إجماليّة سابقة، وقد بدأت تتقدم
نوعاً ما، ومن المستحسن إيجاد فكرة جديدة: وقد وجدها.

في هذه الأوقات التي عادت فيها الحرب تهدّد كلّ مكان من العالم، خطرت بباله فكرة، ولم يكن مستاء منها. يتعلّق الأمر هذه المرّة بإجراء لا مرثي ذي قوّة عظمى، حزمة جزيئات ماحقة سمّاها بافتخارٍ شعاع الموت. السّلاح المطلق.

هذا السّلاح، الذي يقوم على مبدأ تسارع الجزيئات- التي تعدو بسرعة قصوى حتّى أنّها لا تحتاج، في الإيذاء، إلى أن تكون كبيرة الحجم-، سيكون قادراً على إيقاف سيّارة في أوج سرعتها، وسفينه تمخر اليمّ أو طائرة محلّقة، بأن يُنذّبها بمنتهى البساطة. جهاز دفاعيّ كهذا سوف يجعل أيّ بلد، صغيراً كان أم كبيراً، قادراً في الوقت نفسه على ضمان حمايته وعدم قابليته للتدمير من قبل القوّات المعادية، سواء أكانت جوّيّة أم بحريّة أم بريّة. ستكون قدرته الرّادعة من القوّة ما يجعل إمكانيّة الحرب نفسها غير متخيّلة ولا واردة. السّلاح المطلق، قطعاً، سوف ينشر الانسجام العالميّ. كانت تلك قبل خمسة وأربعين عاماً، وأيّاً كانت قيمتها، فكرة ألفريد نوبل مع متفجّراته.

عندما عرضت صحيفة نيويورك تايمز بإشفاق ابتكار

غريغور الجديد ذاك، حتى وإن ولد لدى قراء اليومية انطباعاً حماسياً، فإن المجموعة العلمية هزت رأسها بإيقاع كالعادة، ولم يوجد سوى في هوليود من قال إن ثمة مشاهد جميلة يمكن تصويرها، دون التّقصّف في الخدع السينمائية. باختصار، تركوه دائماً يتكلّم، بسهولة لاسيّما وأنّ غريغور، بعد أثر الإعلان، صار يقتصد في كلامه. إذا امتنع بحرص عن تفصيل القول في مجمل مشروعه، وظلّ هذه المرّة محترزاً، فلاّته محتاط بشكل مضاعف. كان يخشى أولاً، كما هو الشأن دائماً في حياته وفي تاريخ العلوم، أن تولد تلك الفكرة في اللحظة نفسها في ذهن عقول أخرى غير عقله، وأن تُسرق منه مرّة أخرى - وهو ما ناله في الغالب، حتى ليكاد يعتاد، ولا يرغب أن يُخدع من جديد. ولكّنه يتهيب خاصّة من أن تستأثر بلاد واحدة، ولو كانت بلاده، باستغلال فكرته، وهو ما يُخلّ بغايته من السلام الكونيّ.

وإذ قرّر أن يجعل الوصول إليها متعذراً على قوّة وحيدة، ها هو يعود إلى خطّطه ذات مساء، ويبسطها على طاولة وييده علبة غُرّاء ومقصّ، ويقصّها في ستّة أجزاء مستقلة بعضها عن بعض، بحيث تقدّم كلّ واحدة زخماً

من المعلومات ولكنها مفردة لا تصلح للاستعمال، ومثل قطعة «بازل»، لا تكون ذات معنى إلا على ضوء القطع الأخرى. قضى في ذلك الليل كله. وعندما طلع النهار، كان كل شيء قد سُوي. بقي أن يضع كل جزء في ظرف ثم يصبر حتى فتح مكاتب البريد، وفي الوقت المحدد، ذهب لإرسال ظروفه، كل واحد منها موجه إلى إحدى وزارات الحرب في ست قوى عالميّة، على انفصال.

كان ذلك مكلفاً من جهة طوابع البريد، ولكنّ اللازم لازم. فبهذه الكيفيّة، وأمام ستّ قطع خاضع بعضها للبعض الآخر، سوف تُضطرّ الحكومات الستّ إلى التفاوض وتتفق معاً للحصول على رؤية شاملة للمشروع. فكرة جيّدة، الوحيدة في الحقيقة، لا يمكن أن تسير الأمور إلا هكذا، عدا أنّ الوزارات لن تُجيب أبداً.

بعد عشر سنوات أخرى، في انتظار البريد الذي لم يصل لا قبل الحرب ولا أثناءها، لم يبقَ غير الحمايم. ليست تلك الموجودة في غرفته فقط، وإنما أيضاً حمايم برايانت بارك التي كان غريغور يُطعمها، عند هبوط الليل، حبوباً قديمة بأسعار مخفضة.

شخصياً لم أعد أطيق تلك الحمايم. أنتم أيضاً ما عدتم تطبيقونها، أشعر بذلك. لم نعد نطبق، والحقّ أنّها، بما هي عليها من نكران جميل وتلوّن، ما عادت تُطبق غريغور. ملّيت شخصه واستنقصت جودة تمويناته، فقرّرت التخلص منه.

العملية، التي دُبّرت بإحكام، ستدور في مساء شتويّ حين يغادر فندقه في الليل الصقيعيّ الذي يبكر بالهبوط،

دون أن يُوجّه التّحيّة لصبيّ المصعد ولا للبواب مثلما لم يعد يجيّي أحداً من زمن طويل. قليلة هي السيّارات في الشوارع، قليلون هم المارّة نظراً للجليد. كان ثلج خفيف ومنتشر يتساقط في نُدْف شاردة لامبالية، على قُبعة غريغور خلال سيره نحو الحديقة العامّة- حيث تكتّلت على أشجارها في شكل كومندوس حمائم تنتظره في صمت. ولما كان يتمهّل على الرّصيف أمام الحواجز المشبّكة، يرقب بغير انتباه حركة المرور المتضائلة قبل عبور الطّريق، أبصرت الحمائم عن بعد، في الظّلمة الباردة، سيّارة. دوزنبرغ قديمة متأكسدة، مفلسة، في حال حطام تقريباً، مطّاط عجلاتها المصفّر مفرّغ من الهواء إلى حدّ الثلث، زجاجها ملوّث بالشّحوم ومشقّق، واقى محرّكها قطع ممزّقة، والصّدأ لا يكاد يدع سوى رؤية بقايا أخضر أو أزرق يختلطان على هيكلها. كانت تسير ببطء، ولكنّ، فيما يبدو، دون تحكّم تامّ وكأنّ سائقها كان سكران، وهو كذلك.

وفيا تلك السيّارة تتأهب للمرور حيث كان غريغور، هجمت عليها الحمائم فجأة في شكل فرقة صداميّة

وحطّت معاً على واقية الرّيح، وتكدّست عليها وهي تنشر أجنحتها، مشكّلة طبقة سميكة من الثلج القذر، فسدّتها وأعمتها في لحظة. داخل العربة، لم يعد السائق يرى شيئاً فجأة، ودون أن يجد الوقت ولا ردّ الفعل أو حتى يفكر في تشغيل مساحة الزجاج، قاده ارتبائه الذي ضاعفه الشّكر إلى تدوير عجلة القيادة بشكل أهوج، محدثاً انحراف سيارّة الدّوزنبرغ فانزلقت على بقعة من الجليد وصعدت على الرّصيف وصدمت غريغور وأوقعته على قفاه. ولم تكد الحمايم تقترف جُرمها حتى طارت لتعود إلى أشجارها فيها كان السائق، وقد عاد إلى الإسفلت، يلوذ بالفرار وهو يتعزّج.

بقي غريغور على الرّصيف غائباً عن وعيه، وقد تدرّجت قُبَعته غير بعيد عنه واستقرّت مقلوبة، ممّداً وحيداً في اللّيل الجليديّ ولا شكّ أنّه كان يمكن أن يموت، هناك، من شدّة البرد، لو لم يمرّ شرطيّ صدفةً أثناء طوافه. أسنده، وحاول أن يعيده إلى رشده، فغطّاه بمعطفه المبطن بفرو وراح يصفرّ بكلّ قوّته، معلناً الإنذار كي يجيء الإسعاف. غير أنّ غريغور، ما كاد يستعيد بعضاً

من وعيه حتّى ردّ على ذلك بغلظة، واعترض بثلاث كلمات حادة على ما نسميه سيّارة إسعاف، ودون أن تبدر منه أدنى كلمة امتنان، اشترط بكيفيّة بغیضة أن يُعاد على وجه السرعة إلى فندقه.

عندما أُعيد إلى الفندق، لم يقبل بالعلاج إلّا من بعد ما دعا السّاعي بالهاتف: لا بدّ أن يأتي حالاً لتسلّم الحبوب والذهب لينوب عنه في برايات بارك. ثمّ حضر طبيب استقبله غريغور كما يستقبل كلباً، فارضاً عليه أن يضع قناعاً ويلبس قفازاً لفحصه. شخّص الطّبيب ثلاثة ضلوع مكسورة، وثُرّوة مشروخة وكسراً جزئياً في عظم القصّ، ووصف له راحة تامّة بثلاثة أسابيع، ولكن لما كان غريغور قد تعرّض للبرد، فقد أصيب بالتهاب في الرّتين حول تلك الأسابيع الثلاثة إلى ثلاثة أشهر.

مائة يوم من العزلة كان ذهن غريغور خلالها يتيه، وخوفه من الميكروبات يزداد إلى حدّ كان يتوسّل فيه إلى زوّاره القلائل، حتّى المقرّبين، حتّى إيتيل، بالبقاء على مسافة منه قدر الإمكان- باستثناء السّاعي الذي كان يرفع له كلّ يوم تقريراً عن مهمّته في الحداثق العامّة وأمام

كاتدرائية سان باتريك.

إن استطاع أن يتعافى من الصدمة، فإن صحته ظلت هشة. كان يعاني من اضطرابات في القلب، ويغشى عليه من حين إلى آخر، ويزداد ضعفاً، حيث تسهر على راحته امرأة تنظيف كانت تأتي كل يوم لترتيب غرفته. ذات صباح، طلب غريغور من تلك المرأة بلجاجة، وهو ممدد في فراشه، أن تعلق في أكرة الباب لدى خروجها، ورقة مطبوعة يُرجى فيها عدم الإزعاج. ورغم تعالي أصوات الطيور الجائعة، المضطربة في أقفاصها حول السرير، انتظر الناس ثلاثة أيام قبل مخالفة تعليمته هذه.



نبذة عن المؤلف:

يُعتبر جان إشتوز من أكبر مجددي الكتابة الروائية في فرنسا في العقود الأخيرة. ولد عام 1947 في مدينة أورانج الفرنسية، لأب طبيب نفسي وأم رسامة. ولدى إنجازه الدراسة الثانوية، بدأ بدراسة الكيمياء، ثم انعطف إلى علم الاجتماع، فالموسيقى، ثم عقد العزم على ممارسة الكتابة الأدبية. نشر حتى الآن ثمانى عشرة رواية، وكتب للسينما عدداً من السيناريوهات. فاز في 1983 بجائزة مديسيس عن روايته «شيروكي»، وفي 1999 بجائزة غونكور عن روايته «أنا راحل». ينشر له مشروع «كلمة» ترجمة لثلاثة كتب صاغ فيها بلغة روائية سير ثلاثة من أعلام العصر الحديث وهم: المؤلف الموسيقي الفرنسي موريس رافيل «راقيل»، والعداء التشيكي إميل زاتوبيك «عدو»، والمخترع ومهندس الكهرباء الصربي-الأمريكي نيكولا تسلا «بروق».

نبذة عن المترجم:

أبو بكر العيادي كاتب ومترجم تونسي مهاجر، ولد عام 1949 في جندوبة، ويقيم في فرنسا منذ 1988. نشر ست روايات وسبع مجموعات قصصية، ووضع كتباً بالفرنسية مستوحاة من التراث القصصي العربي والحكايات الشعبية التونسية، ونقل إلى العربية أعمالاً من الأدب العالمي منها: «أمراض الأدب القاتلة»، مقالات مختارة لمجموعة من الكتاب الفرنسيين، عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1990، ورواية «ذهول ورعدة، لأميلينو تومب، القاهرة 2012، ورواية «مذكرات شيهم، لألان مابانكو، القاهرة 2015، عن الهيئة المصرية للكتاب. يعمل محرراً بجريدة العرب، ومستشار تحرير بمجلة «الجديد، اللندنية.

بروق

طيّفه المديد الشبيه بطائر مائي ذي ذنبٍ عققق أسود، بربطة
عنق بيضاء وحذاء مُبرنق (...) يرتسم أوّل الأمر في ظلّ
المسرح، قبل أن تُظهر الأضواء الكاشفة شيئاً فشيئاً عدداً
وافراً من الأجهزة ذات التّردّد العالي، يحتوي الضّوء الخافت
بكوة في الجدار على لافتات تضيئها أنابيب المعهودة، ولوالب
ومصابيح أخرى لاصفة تروح أضواؤها وتجيء كالأنفاس.
وهنا وهناك يومض من الدواليب المسنّنة برقّ، أدوات تحاسيّة
صغيرة، كروية أو بيضاوية، تدور وحدها بسرعة فائقة على
مناضد مغطاة بالمُخمل وتغيّر اتجاه دورانها بانتظام. زاد
غريغور في إطالة السّكون، بعد أن خيم على المكان، ثم بدأ
يعرض سلسلة متسارعة من الأعاجيب الكهربائيّة.



السعر 50 درهماً



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALINA

المعارف العامة
المنطقية وعلم النفس
الرياضيات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الآداب
التاريخ والتجديد وأدب السيرة
أطفال و ناشئة

9 789948 139638